713

روايات عبير

الأصلية

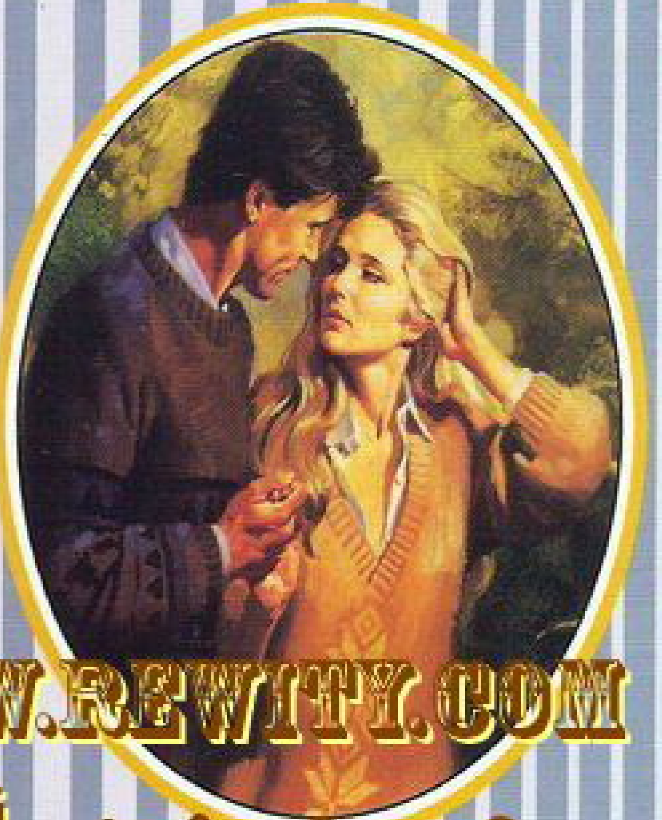

WWW.REWITY.COM

مرمورية

Charlotte Baker

كِبْرِيَاءُ امرأة

روايات عبير

«كِبْرِيَاءُ امرأة»

إنَّ اختلاف الطبائع بين البَشر يدفع أحيانًا بعْضَهم إلى التمسّك بكبريائه حتى آخر لحظة. والكبرياء قناعٌ بإمكانه أن يحجُبَ الحبَّ أو يحوّله إلى كراهية وصدٍّ. فـ «دومني» الفتاة الإنجليزية تزوجت بـ «بول» الرجل الذي لم تحبّه يومًا، على الرغم من الحياة الرغدة التي تمتّعتْ بها معه، فقد ظلّت تحلُم بشواطئ بلدها، وبذلك الرسّام الشاب الإنجليزي الذي خطفَ قلبها وعقْلها. وفجأة أحبّت زوجها، ولكنّ كبرياءها كانت دائمًا تمنعها من الاعتراف بحبّها له. حتى جاء اليومُ الذي قالتْ فيه:

« إنَّ الكبرياء كانتْ دائمًا رذيلتي».

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.	قطر	10 ريال
سوريا	100 ل.	مسقط	1 ريال
الأردن	1.5 دينار	مصر	6 جنيه
السعودية	10 ريال	المغرب	30 درهم
الكويت	750 فلس	ليبيا	5 دينار
الإمارات	10 دراهم	تونس	2.5 دينار
البحرين	1 دينار	اليمن	300 ريال

ISBN 995338048 -1
9 789953 380483

العنوان الأصلي لهذه الرواية
Yesterday´s Embers

تأليف
Charlotte Baker

الغلاف بريشة الفنان
Patrice Gordon

WWW.REWITY.COM
مرمورية

كبرياء امرأة

(713)

الناشر
المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع
تليفون: 666 212 9 961 00 – فاكس: 665 212 9 961 00
ص.ب 374 جونيه – لبنان
Email: info@inter-press.org   www.inter-press.org

وكلاء التوزيع
دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعًا باتًا نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

- 1 -

كان ثوب زفافها من الحرير اليوناني الجميل، وكان شعرها متوجًا بإكليل فضي رقيق، تتدلى منه طرحة دانتيل مطرزة بقلوب صغيرة. وعندما ظهرت «دومني» متأبطة ذراع عريسها، لم يخطر لأحد أنها تزوجته خوفًا وليس حبًا. ورحل العروسان بعد ساعة متجهين إلى الساحل، واستقلا سيارة أجرة إلى الفيلا الواقعة على الشاطئ الصغير، التي استأجرها «بول ستيفانوس» لقضاء أسبوع، قبل أن يطيرا إلى «أثينا». كان يتمنى دائمًا أن يشاهد الساحل الغربي. وأخبر عروسه «دومني» بذلك وها هي الفرصة قد حانت. وكان خادم «بول» اليوناني، وزوجته «ليتا»، قد سبقا العروسين إلى الفيلا، وأعدّا كل شيء لاستقبالهما. كان يومًا ساحرًا دافئًا من أيام الربيع لكن عند غروب الشمس هبّت نسمة من البحر، وأشعل الخادم «يانيس» نار المدفأة في غرفة الجلوس. وشعرت «دومني» بالدفء لأول مرة في ذلك اليوم عند دخولها غرفة الجلوس. وخلع «بول» معطفه، وتقدم نحو الطاولة، حيث كانت زجاجتان ذهبيتا الغطاء في انتظارهما ليشربا نخب العرس. وقال «بول» بصوته العميق ذي اللكنة الأجنبية وبلهجة يشع فيها المرح والرضا:

– رائع. لقد تذكر «يانيس» طلبي. وتكومت «دومني» بجانب المدفأة تدفئ يديها، وتهدّلت خصلات شعرها العسلي فوق وجهها، فأخفت نظرة الفزع التي قفزت إلى عينيها عندما رأت «بول» يعد المشروب الذي أحسّت أنه سيكون بمثابة السم. وقال «بول» وهو يعاونها على النهوض:

– دعيني أساعدك على خلع معطفك. وكانت أصابعه ماهرة في فك أزرار

معطفها ونزعه من فوق كتفيها. ودفعت هي يديها في خلال شعرها، بينما كان يتأملها بعينين لاهيتين. ثم قال:

– غالبية النساء يشغلهن عادة تمشيط الشعر وإعادة الزينة بعد هذه الرحلة الطويلة في القطار. بدأت أظن أنك إما أن تكوني غير مغرورة بنفسك على الإطلاق، وإما أنك الغرور بعينه في تظاهرك بعدم المبالاة بحقيقة جمالك. ولم تعر كلامه أذنًا صاغية، وواجهته في تماسك سرعان ما أخذ يتلاشى، وشعرت بالبرودة تسري في أعماقها، بينما كان عقلها يجري في كل اتجاه هربًا من فكرة كونها بالفعل هنا... في «كورنوال» ومتزوجة بهذا الرجل! ولم تستطع أن تلوذ بالكتمان طويلا، فخرجت الكلمات منها عنوة.قالت:

– «بول»، هل ستمضي حقًا في هذا... الزواج الذي أرغمتني عليه؟ وبفتور،وبطء أخرج علبة سجائر وقدمها إليها،ورفضت بهزة من رأسها، وأشعل هو سيجارة قائلا:

– أعطيتك الخيار يا عزيزتي. ونفث دخان سيجارته واستطرد قائلا:

– أنا لم أرغمك على الزواج إنه اختيارك.

– الخيار؟ ارتجفت «دومني» من الكلمة. هل يعتقد ذلك حقًا؟ وامتلأت عيناها الزرقاوان بالخوف والحيرة وهي تتطلع إلى وجهه. واستقرتا أخيرًا على الندبة الغائرة فوق عينه اليمنى. الندبة كانت الشيء الوحيد الذي يضفي عليه صفة الإنسانية. وقالت:

– أنا، أنا لا أصدق أنك مصنوع من الحجر لكنك تتصرف كما لو كنت كذلك. كما لو كان لا يعنيك على الإطلاق أنك اعتديت على حياتي، وانتزعتني من كل ما أحب،فقط لأكون لعبتك. هل تعتقد أنني أستطيع أن أغفر لك ذلك، أو أن أحبك فعلا؟ وتشاغل «بول» بتقليب فحم المدفأة

بفرع شجرة، وارتسمت ابتسامة غامضة في عينيه وهو يقول:

– أنا مدرك تمامًا حقيقة نظرتك إليّ، لكنها تفاهة عاطفية أن أكون محبوبًا. وليس عندي وقت لأبدده في التفاهات. لديَّ نواحي ضعف قليلة يا «دومني»، واحدة منها هي حب الأشياء النادرة. وأنت مخلوقة نادرة جدًا، أنت جميلة، ولكن غامضة يمكنك أن تخفي أي شيء، باردًا كان أم مشتعلا. وسحب نفسًا عميقًا من سيجارته، وقال ببطء:

– أردتك، منذ أول لحظة تقابلنا فيها في «فردان».واستطاع أن يأسر نظراتها، وأن يرغمها على الإنصات إليه. واستطرد قائلا:

– في ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه تزوير ابن عمك، ذهبت إلى «فردان» في حالة غضب شديد، وكنت مصممًا على إخبار عمك بما فعله ابنه الشقي. وكنت هناك. كنت لا تزالين في المدرسة الداخلية آخر مرة كنت فيها في «إنجلترا» قبل ذلك، ولكن في ذلك اليوم بالذات كنت قادمة لتوك من نزهة. كان فمك ورديًا. وعيناك شديدتي الزرقة. ومنذ تلك اللحظة أصبح تورط ابن عمك سلاحًا في يدي.وتأملها... ثم استأنف قائلا:

– إنك تجفلين يا «دومني». ولكنني كنت آمل ألا أستعمل هذا السلاح. كنت آمل أنك قد...في أي حال أصبح واضحًا أخيرًا أنك تنظرين إليّ فقط على أنني اليوناني الجاف الذي يعمل عنده ابن عمك كمساعد مدير في أحد مكاتب خطوط «ستيفانوس» للملاحة البحرية. وعاد إلى السكوت، بينما اهتزت أعصاب «دومني». وارتفع صوته من جديد يقول:

– أردتك... وبأي ثمن. وارتعدت، كارهة صراحته القاسية، لكنها مدركة أيضًا أنه لو تحدث عن حبه لها، لكانت احتقرته. وطافت

بنظراتها حوله كما فعلت أول يوم قابلته في «فردان»، عندما حذرتها غريزتها أنه خطر يهددها بوجهه الصارم، وبعينيه الذهبيتين اللتين تشبهان عيني النمر، وبشعره الداكن القصير المجعد، الشبيه بصوف الغنم. وتباعدت عنه إذ كان يشع قوة وخطورة، وقالت بصوت مضطرب كانت تحاول أن تحتفظ بسيطرتها عليه:

– لا أعتقد أنني يمكن أن أستمر في هذا الزواج يا «بول»... أرغمتني على موقف قاس، غير متحضر، وأنت لا تحمل لي ذرة من المشاعر. قال:

– كبرياؤكِ هي التي أرغمتك على اختياري، مفضلة ذلك على رؤية اسم أسرتك في محاكم الجنايات. وسكت برهة، ثم قال:

– ولماذا أرثي لك، وأنا الذي يجب أن يعجب بك لأنك واحدة من اللواتي يؤثرن العذاب على رؤية من يحببن في الوحل؟ وألقى ببقايا سيجارته في النار، وتقدم منها. ومن جديد تباعدت عنه، لكنه أمسك بها وهمس:

– تعالي... أنا لست وحشًا. وذُعرت عندما لمحت بريق عينيه الذهبي من خلال أهدابه السوداء الكثيفة. وعاد يهمس:

– أستطيع أن أكون لطيفًا خاصة مع شيء جميل مثلك، أنت جميلة للغاية، وكلك كبرياء، إنك جليد مشتعل. وسأل ساخرًا:

– يا ملاكي الصغير... هل توقفت عن الابتسام إلى الأبد؟ هل ستنظرين إليّ دائما بهاتين العينين العابثتين؟ فقالت:

– وماذا توقعت؟ عينين مليئتين بالحنان؟ وبدا عليها أنها على وشك البكاء وقال:

– لا أسألك أن تحبيني يا «دومني»، ولكن لا تكرهيني.

– أنا أحتقرك. خرجت الكلمات عنيفة من فمها وأحست بالنفور من

قربه، من لمسة يديه، بل ومن النفور لإدراكها أن وجهه كان أجمل وجه رأته، رغم الندبة التي تعلو عينه اليمنى. نعم كان وسيمًا، وقاسيًا. وانطلق يمسح جبينها، إذ دخل في تلك اللحظة «يانيس» بصينية الشاي والتي وضعها فوق المنضدة. وجلست «دومني» تسكب الشاي. ولا شيء في وجهها له لون سوى عينيها وفمها. وكان «بول» قد استأجر الفيلا مفروشة، وفي نظرة إلى المكان تبينت أنه لا شك دفع إيجارًا مرتفعًا. نقوده كانت تخيفها. حوّلته إلى رجل لا يعرف، أو لا يهتم، بأن هناك أشياء لا يستطيع أن يشتريها أبدًا. مثل الحب والشرف اللذين يجبرها الزواج على منحهما إياه! وقال «بول» لخادمه:

– أنا مسرور لتذكرك مشروبي يا «يانيس». سنشربه طبعًا مع عشاء عرسنا. ورفعت «دومني» بصرها، ورأت وجه الرجل اليوناني يفتر عن ابتسامة خفيفة. كان قليل الكلام، شديد الولاء لسيده. وبعدما أكد لسيدته الجديدة الشابة أن عشاء العرس سيكون جاهزًا بعد ساعة، انسحب بهدوء من الغرفة. وناولته «دومني» فنجانه. وارتشف رشفة، ثم قال ضاحكًا:

– إنني أتساءل عمّا إذا كنت سأعتاد الشاي الإنجليزي. سألت ببرود:

– ولماذا لم تطلب قهوة؟ وجلس على ذراع المقعد قائلا:

– أعرف أنك تفضلين الشاي يا عزيزتي. وقاومت نفسها حتى لا تتحرك بعيدًا عنه. وأعاد الشاي الساخن بعض الحياة إلى جسمها البارد، لكنها لم تشعر بالامتنان لـ «بول»، إذ أوحت لنفسها بأن عليها أن تكره الأشياء التي منحها إياها، مثل الثوب الأبيض وطرحة الزفاف، التي أرسلت إليها في «إنجلترا» بأمره من وطنه جزيرة «أنديلوس». ودون أن تنظر إليه سألته:

– هل أحرقت الشيكات المزورة كما وعدت؟

– ليس بعد. وعندما نظرت إليه بسرعة، ابتسم قائلا:

– ربما استقرت في رأسك الجميل فكرة الهرب مني، لذلك فالشيكات المزورة ستبقى، حتى الغد. واحتقن وجهها ألمًا، عندما فهمت ما يقصد. وقالت:

– هل... هل تعد بإحراقها غدًا؟ قال مطمئنًا:

– سأحرقها في وجودك. بعد دقائق صعدا إلى الطابق العلوي ليرتديا ملابس العشاء، وكان جناحهما الأبيض مزينًا بأنواع مختلفة من الورد، وكان ملحقًا بكل غرفة نوم حمام خاص، وتأخرت «دومني» في أخذ حمامها، حتى سمعت الباب المشترك يغلق، وتأكدت أن «بول» استحم، وارتدى ثيابه، ونزل. وحينئذ لفت نفسها في منشفة كبيرة بيضاء، وخرجت من الحمام إلى غرفة نومها. وعندما اقتربت من التسريحة، وقع بصرها على علبة مجوهرات لم تكن موجودة عندما دخلت الحمام. وحدقت إليها كما لو كانت شيئًا يمكن أن ينقض عليها ويفتك بها. لابد من أن «بول» هو الذي أحضرها. وفكرت في أن تنقلها إلى غرفته دون أن تفتحها. لكنها متأكدة أنه سيرغمها على أن ترتدي ما في العلبة. وفتحت العلبة، ووجدت داخل بطانتها الحريرية مشبكًا من اللؤلؤ على شكل قلب تحيط به قلوب من الياقوت كدموع من دم متفجرة ومعه قرط مشابه له. وحدقت «دومني» إلى المجوهرات التي سحرتها بجمالها، ثم شعرت كأنها تسخر منها. نزعت المشبك، ورمته وهزتها دموع الغضب، واستلقت فوق سريرها تبكي بدموع ساخنة، كما لم يحدث من قبل في حياتها. كانت سيدة نفسها. ابنة الأخ المحبوبة لـ«مارتن دان» الذي عاملها دائمًا كابنة منذ أن جاءت إليه طفلة، بعدما

غرق والداها. ثم... وسط فيضان دموعها... جلست، ورفعت خصلات شعرها عن وجنتيها المبللتين وحدقت بقلب واجف إلى الباب المشترك. قال «بول» إنه سيتخلص من هذه الشيكات في الغد. إذن فهي موجودة في الفيلا. في غرفته. وقفزت من سريرها، ونسيت دموعها وهي تقترب من الباب. إذا عثرت على الشيكات فستعدمها بنفسها، وستتحرر من «بول ستيفانوس» وازداد خفقان قلبها للفكرة. ثم إن الفيلا قريبة من مدينة «لوو» وستستطيع بكل تأكيد أن تجد غرفة تقضي فيها ليلتها. وأدارت مقبض حجرة «بول» وأضاءت النور. كانت هناك زجاجات عطر رجالي على التسريحة، كما كانت بيجامته السوداء الحريرية ملقاة فوق السرير، ورائحة دخان سيجارته ما زالت تعبّق جو الحجرة. وتملكها الرعب لكنها سرعان ما تغلبت على اضطرابها واقتربت من الدولاب المحتمل أن يحتوي حقيبته. ودق قلبها بعنف، فلم تجرؤ على الحلم بوجود طريقة للهرب من «بول» واسترداد حريتها التي كانت تعتز بها كثيرًا. صحيح أنها منذ أربع سنوات، عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها، كانت على وشك الوقوع في الحب مع فنان شاب، كان يعمل بالقرب من مدرستها الداخلية. ولكنها كانت قصة حب بريئة ومرحة. وخرج «باري» من حياتها كما دخلها. ولم تسمع عنه منذ ذلك الحين. وفتحت دولاب «بول»، وقفزت بعصبية عندما أطلّت عليها صورتها المنعكسة على المرآة الداخلية. أخافتها نظرات عينيها المشتعلة، فألصقت باب الدولاب بالحائط حتى لا ترى نفسها. ولس كم سترة من التويد وجنتها وهي تنحني، فأزاحته عنها كما لو كان ذراعًا تحاول الإمساك بها. في الطابق السفلي وقف «بول» أمام إحدى النوافذ متكئًا بكتفه على إطارها ومتجهًا ببصره إلى شاطئ البحر القريب من سلالم

الفيلا. وفي الخارج اشتدت الرياح، وأخذت الأمواج ذات الزبد الأبيض تتكسر على الصخور، يضيئها نور القمر المتسلل من بين السحب، وصار صوت البحر كرعد يخترق الجدران، فوضع «بول» يده على صدغه الأيمن، وكأنه يسمع صداه في أذنه. وجاء «يانيس» إلى الحجرة قائلا:

– معذرة يا سيدي. مكالمة خارجية للسيدة. واستدار «بول»، وخرج من دائرة الظل بجوار النافذة، وقال وقد ظهرت الدهشة على وجهه:

– مكالمة لزوجتي؟ حسنًا سأرد عليها يا «يانيس» وخرج إلى الصالة، ورفع سماعة الهاتف وذكر اسمه، وفي الحال وصل إلى أذنيه صوت «مارتن دان» عبر الأسلاك، وكان مختلجًا بالانفعال:

– «بول»... يجب أن أتحدث مع «دومني» حالا... من فضلك دعها تكلمني فالأمر مهم للغاية. وتقلصت يد «بول» فوق سماعة الهاتف وهو يسأل:

– ماذا حدث؟

– ابني «دوغلاس» أخبرني بالنقود التي أخذها منك. تلك الشيكات التي زورها باسمك. وساد صمت. كما لو كان «مارتن دان» لا يكاد يصدق أن ابنه فعل ذلك واستطرد قائلا:

– «بول»... ابني شعر بأنه يجب أن يخبرني... من أجل «دومني»... إنه يعتقد أنها تزوجتك، باعت نفسها في الواقع، لتنقذ كبرياءنا التعس.

– باعت نفسها لي؟ يا لها من فكرة عقيمة يا سيد «دان»! إنها ترجع إلى القرون الوسطى.

– أنا أعرف «دومني»، وما الذي يمكن أن تفعله من أجل من تحب... وأعرف أيضًا أن ابنة أخي لاتستطيع أبدًا أن تحبك يا «ستيفانوس»،

إنك لست من يوافقها لأنك من عالم آخر. أما زلت تنصت إليّ؟ إذن فأنا ألح على التحدث الآن مع «دومني». ووقف «بول» صامتًا، وقد تجهم وجهه وبرقت عيناه الذهبيتان، ثم قال:

– أعرف أني من بلاد أخرى يا سيد «دان»، وأني أتكلم اللغة الإنجليزية بلكنة غريبة، ولكن شيئًا من ذلك لا يغير حقيقة أن السيدة ابنة أخيك هي الآن زوجتي. صاح «مارتن دان» بثقة:

– الزواج يمكن إبطاله. سأل «بول» بلهجة مهذبة.

– على أي أساس؟

– عدم المعاشرة، هذا هو القانون.

– ولكن الحقيقة أيضًا يا سيد «دان»، أني و «دومني» تحدثنا بمفردنا هنا لعدة ساعات. إنها جذابة جدًا يا سيدي. وأنا لست إنجليزيًا رقيقًا. واشتد الصمت على الطرف الآخر،وارتسمت ابتسامة خافتة على وجه «بول»– كان «مارتن دان» رجلا إنجليزًا مهذبًا للغاية ملتزمًا في حياته بمجموعة من المبادئ، وبصوته الإنجليزي الجاف المعزق قال:

– «ستيفانوس» دع «دومني» تمضي، إنك لا تحبها، إنك تريد امرأة تكون رمزًا لنجاحك في تلك الغابة من العالم، المال والتألق، لا شيء من ذلك يهم «دومني».

– ولكن أن يكون في استطاعتها أن ترفع رأسها، وأن تواجه الناس، أمر مهم بالنسبة إليها يا سيد «دان». وهل يستطيع واحد منكم أن يفعل ذلك، إذا وضعت «دوغلاس» في السجن؟

– وهل يمكنك أن ترفع رأسك، وأنت تعلم طول الوقت أنك أرغمت «دومني» على أن تصبح زوجتك؟ لابد من أنها تكرهك.

– أنا رجل غريب. أفضل أن أتزوج امرأة تكرهني بشرف على أخرى

www.rewity.com

تحبني دون شرف. وبعد أن نطق «بول» بهذه الكلمات، وضع السماعة ليقطع الاتصال، ثم رفعها مرة أخرى وأسندها إلى المنضدة، وعبر الصالة الصغيرة متجهًا إلى صالة الطعام حيث كان «يانيس» يضع اللمسات الأخيرة للمائدة، وأخبره بأنه رفع السماعة، وأنه يريدها أن تظل في مكانها. ولم يناقش «يانيس» الأمر. إذ كان «بول» السيد في بيته، حسب التقاليد اليونانية قال «بول» وهو يداعب بأصابعه الورد الأحمر في الزهرية الموجودة بين مكانه ومكان «دومني»، والشموع الكهرمانية المعدة للإضاءة:

– المائدة تبدو رائعة.

– سيكون العشاء جاهزًا بعد عشر دقائق يا سيدي

– إذن فمن الأفضل أن أذهب لأخبر زوجتي. يا للوقت الذي تستغرقه النساء في ارتداء ملابسهن! وابتسم «يانيس»، وراقب «بول» بعينيه الداكنتين وهو يخرج من الغرفة. ثم لمس بدوره الورد. وزفر زفرة شديدة حرّكت لهيب الشموع التي أضاءها.وصعد «بول» السلالم، واتجه إلى باب غرفة «دومني». ولم يتلقَّ ردًا على طرقه، فأدار المقبض ودخل، واتجه بصره في الحال إلى الباب المشترك الذي كان مفتوحًا على مصراعيه، ودخل دون أن تسمع له وقع أقدام بفضل السجادة السميكة، وفاجأ «دومني» متسائلا:

– ماذا تفعلين؟ كان كل شيء مبعثرا: قمصانه، وملابسه الداخلية، وأوراقه والأدراج مفتوحة، ومحتوياتها ملقاة في كل جانب. وسقطت الأوراق التي كانت «دومني» ممسكة بها، إذ استدارت لتتحاشى مواجهة «بول». ثم وقف كل منهما يحملق إلى الآخر وأخيرًا تقدم منها، وأمسك بكتفيها. وقال:

– عمّ تبحثين؟ عن تلك الشيكات التي زوّرها ابن عمك؟ يا جميلتي البلهاء هل تظنين أنني من الحماقة بحيث أحتفظ بها هنا، حيث يمكن أن تضعي يديك عليها؟ إنها مودعة في أمان في أحد بنوك «لوو».

– 2 –

بهذه الكلمات أطفأ «بول» بريق الأمل في قلب «دومني» التي وقفت في مواجهته دون أن تحس الغضب في ضغط يديه فوق كتفيها. كان يجب أن تدرك أنه ما كان ليترك أمامها منفذًا للهرب– لقد دفع فيها ثمنًا غاليًا ولم ينل بعد المقابل. ووقفت دون حراك، بينما أخذ هو ينقل بصره متأملا الدموع التي انسابت على وجنتيها الشاحبتين، وشعرها العسلي الغزير الذي تجعدت أطرافه بتأثير الحمام، وتهدّلت خصلاته فوق كتفيها العاريتين،فبدا في انسجام آسر مع البشرة البيضاء الصافية. ولاحظت «دومني» رجفة على ركن فم «بول». ثم أسدلت جفنيها وهو يرفعها بقوة، ويحملها إلى غرفتها ولم يتركها في الحال، بل وقف يتأملها ثم همس:

– إن نظرة البساطة يمكن أن تخفي متاهات معقدة. وعاد يتفحصها، ثم قال:

– لابد من أنك تكرهينني للغاية يا صغيرتي حتى تثيري غضبي ببعثرة حاجاتي في أرجاء الحجرة،إنك تستحقين صفعة على ذلك.

– سأعيد ترتيب كل شيء.

– بل سترتدين الآن ثيابك. وسمعته يطلق ضحكة هادئة وهو يتركها تقف على قدميها ويقول:

– «دومني»... لا تحاولي الهرب منّي أبدًا سوف أمسك بك دائمًا، وسأحتفظ بك مادام ذلك يسرني. وأحست بالتهديد يسري من أطراف أصابعه المسكة بها إلى أعمق أعماقها. ثم انصرف إلى حجرته، وأغلق الباب خلفه بهدوء. ذهب ليعيد ترتيب أوراقه وحاجاته التي ألقتها على الأرض لكن بعدما نجح في أن يشعرها بالخجل من تصرفها، فأضاف بذلك وقودًا إلى النار التي كانت تحس بها وهي تبدأ في ارتداء ملابسها. واختارت الثوب الأزرق المغطى بالأورغانزا البيضاء، وكان هدية من صديقة تدير محل أزياء في الـ «وست أند» في «لندن». كان طرازًا رائعًا، وكانت «دومني» تعرف أن الخوف من «بول» هو الذي دفعها إلى اختياره لعشاء العرس معه. إن بعثرتها ما في غرفته أغضبته بشدة، وشعرت بأنها بظهورها في هذا الثوب الذي كان يمتزج فيه الأزرق مع الأبيض، تستطيع أن تحمي نفسها من هذا الغضب الذي يجعل منه عاشقًا مرعبًا! وكان القرط المحلى باللؤلؤ والياقوت ما زال في علبة على التسريحة، لكنها عندما عثرت على المشبك بجانب ركن السرير، اكتشفت أنها لا تستطيع ارتداءه هذه الليلة بالذات. وارتدت بدلا منه العقد اللؤلؤي الذي ظهرت به مع ثوب الزفاف والذي كان ملكًا لأمها. وشعرت بشيء من الراحة والشجاعة أيضًا. واختارت عطرًا فرنسيًا. ثم تأملت نفسها في المرآة طويلا. رأت عينين حزينتين لامرأة تزوجت، لتنقذ كبرياء أسرتها، لن تحظى في هذا الزواج بالتقارب والتفاهم. لن تستمتع ببهجة أو بمودة. وبأعصاب مرتجفة كجذور منزوعة من أرضها غادرت غرفتها في طريقها إلى عشاء عرس كئيب، ولمحها «بول» عندما ظهرت على قمة السلم. وألقت نحوه نظرة جانبية لتعرف هل ما زال حانقًا عليها. وطمأنتها ابتسامته التي سخرت من مخاوفها. وصعد

إليها. وشعرت بخفقة في قلبها وهو يقول لها:

– تبدين كملاك في هذا الثوب... وأشعر بأنك ستتلاشين فجأة وراء سحابة، وتتركينني وحدي. ورمقته بفضول وهما يدخلان حجرة الطعام. ولأول مرة تساءلت عمّا إذا كان قد تزوجها رغبة في رفقتها وليس لجمالها فحسب. وفي بدلة السهرة كان خلابًا أكثر من أي وقت مضى. شعرت به عملاقًا إغريقيًا في قميصه الحريري وسترته السوداء. ولم تكن هي ضئيلة لكن طوله الفارع جعلها تعاني ذلك الإحساس. وفجأة داهمها الشعور بأنه يقاسي الوحدة. إنه غني، ووسيم، وجذاب إلى حد الروعة. لكن هذا الرجل كان وحيدًا وغامضًا. وهي أصبحت زوجته! ولم تكن «دومني» ذاقت طعامًا طوال اليوم، وشعرت فجأة بالجوع و «يانيس» يضع أمامها طبقًا من المحارات الشهية. وهمست:

– يبدو لذيذًا. ومنحت «يانيس» ابتسامتها الحلوة. ابتسامة لم تمنحها إلى «بول» قط، الذي لم تتنبه إلى أنه كان ينظر إليها وهو يفتح الزجاجة. وفرقع غطاء الزجاجة، وفار السائل الذهبي، وانسكب على جوانب الزجاجة، وغمس «بول» أصبعه ومسح بها خلف أذن «دومني»، وقال مازحًا في شيء من السخرية وهو يملأ كأسها:

– هذا يجلب لك الحظ يا «دومني». وجلس أمامها، وملأ كأسه هو الآخر، ثم رفعها مرددًا نخبًا باللغة اليونانية. فسألته «دومني» دون أن ترفع رأسها عن الطعام:

– هل يمكن أن أعرف معنى ما قلت؟

– قلت إن في كل كعكة زواج، الأمل هو أحلى ثمرة. وحينئذ رفعت بصرها، ولمحت ضوء الشموع يسكب ظلاله على صدغيه وجبهته ذات الندبة. وسمعته يقول:

– معا يدعو للأسف أن أحدنا لم يعرف الآخر بما فيه الكفاية، فلو كانت الفرصة أتيحت لنا للرقص والنزهة لساعدك ذلك على أن تكوني أقل خجلا معي. لكن لا حيلة لنا في الأمر. كانت لديَ أعمال مهمة هنا في «إنجلترا» استغرقت معظم وقتي. وهذه الأعمال هي التي أتت بي على غير ما توقعت وشعرت برجفة تسري في كيانها، لأن وصوله غير المتوقع إلى «إنجلترا» كان أول خيط في نسيج «الورطة» التي تعيش الآن دوامتها. فلم يكن هناك وقت لدى «دوغلاس» ليغطي خسائر المقامرة وليرد المبلغ الضخم الذي اختلسه من الشركة. وعجزت هي عن أن ترى ابن عمها الضعيف الجذاب، محكومًا عليه بالسجن لحماقته... تمنت فقط أن يستوعب الدرس... ولو على حسابها! وانتهيا من تناول الطعام، وأقبلت زوجة «يانيس» تقدم القهوة. كانت سمراء متحفظة، تجري في عروقها الدماء الرومانية. وقدّمت لـ «دومني» هدية صغيرة، فرحت بها، حتى أنها نسيت برهة أنها ليست متزوجة عن حب– كما كانت «ليتا» وزوجها يظنان– وكانت الهدية عبارة عن سلة صغيرة من المعدن والزجاج مليئة بالتفاح المسكر. وابتسمت «دومني» قائلة:

– إنها جميلة للغاية وغير عادية كم هو لطيف منكما! ووقفت «ليتا» لحظة تتأمل وجه «دومني» الجميل، ثم قالت:

– لتكن السعادة دائمًا من نصيبك، وليباركك الله وليمنحك... ونطقت كلمة باللغة اليونانية، وساد الغرفة صمت بعدما انسحبت «ليتا» وأغلقت خلفها الباب، وحينئذ لم تستطع «دومني» أن ترفع عينيها عن وجه «بول». وتلاشى الإشراق من وجهها فجأة، وامتلأت عيناها بنظرات القلق وهي تسأل هامسة عن معنى الكلمة اليونانية التي نطقت بها «ليتا». ورد «بول» بهدوء قائلا:

– تعني طفلا... صبيًا... وتحركت الندبة فوق عينه عندما لمح الخوف في نظراتها، وانحنت هي بسرعة فوق صينية القهوة، وملأت الفنجانين الصغيرين، بالقهوة التركية، وعندما ناولت «بول» فنجانه كان وجهها مقنعًا بالجمود. وشربا عدة فناجين، ثم نهضت «دومني»، وأخذت تتطلع بقلق إلى محتويات الحجرة من لوحات فنية وقطع أثرية. وأخيرًا وقفت أمام الستارة الكبيرة التي تغطي النافذة. وفجأة تخلى عنها الهدوء الذي التزمته في أثناء تناول العشاء، وأخذ معه اهتمامها بجزيرة «أنديلوس» التي تحدث عنها «بول». بهرها بعض الشيء وصفه لجمال الجزيرة، وكلامه عن بيته القائم فوق ربوة عالية مطلة على شاطئ خاص، كان السكان يسمونه «بيت صخرة النسر». وفجأة قالت بصوت مختلج:

– دعني أذهب يا «بول»، دعني أذهب لو كان لك قلب، أنت تعرف أنني لا أحبك. وهنا تقطعت أنفاسها، واحتبس صوتها، وأمسكت الستارة بيدها كأنها تحتمي بها. وبينما كان «بول» ينهض من مقعده ويعبر الغرفة في اتجاهها، تأملته، رأت فيه قوة النمر وسيطرته إذ يمكنه أن يسحق كافة العقبات التي تعترض طريقه إلى ما يريد. وسأل:

– وما هو المفروض أن أفعله إذا تركتك تذهبين؟ هل تتوقعين مني أن أحرق هذه الشيكات في مثل هذه الحالة، وأخرج خالي الوفاض، أو أكتفي بالرماد؟

– وما الذي يمكن أن يحققه لك زواجنا؟ لا شيء أيضًا سوى ذرات رماد. وكان اليأس يطل من عينيها وهي تتكلم، وهو أمامها بوجهه الوسيم وكل قسمة تنطق بالقوة وبالعناد. وعادت تقول:

– إذا أرغمتني على الحياة معك يا «بول»... سأكرهك. وأطلق ضحكة ناعمة وقال:

– الكراهية والحب متشابهان يا أسيرتي... كلاهما عاطفة عمياء.

–لا يوجد حب بيننا... ولن يكون أبدًا. وبرقت عيناها تؤكدان المعنى. وتقدّم منها قائلا:

– آه... ولكنك تتكلمين عن الحب الرومانسي. واقترب وأمسك بوجهها بين يديه الدافئتين، وأخذ يبحث في أغوار عينيها وهو يقول:

– يمكنك أن تجدي لديَّ أيَّ حب إلا ذلك النوع الذي تقرئين عنه في الكتب. وازداد خفقان قلبها وهو يتكلم. وفكرت في «باري» الذي أسعد قلبها وجعلها تتساءل عن الحب وأسراره... وعاد «بول» يهمس:

– هل أخبرك رجل من قبل أن لك عينين رائعتين، أشبه بالسماء الصافية؟ وأحنى رأسه وقال:

– يجب أن تفهمي يا «دومني» أنني عندما أعقد صفقة أحرص كل الحرص على الوفاء بالتزاماتي، وأحرص أيضًا على أن يقوم الجانب الآخر بالتزاماته. همست مصدومة:

– ذلك في العمل، ولكن هذه حياتنا، سعادتنا، هل أنت متشائم إلى حد يجعلك لا تؤمن بالسعادة؟ هل أنت جامد، حتى أن شيئًا لا يؤذيك؟

– لا يمكن أن يؤذيني ما يظنه الآخرون عني، أنا يوناني، ولا يهمني إلا ما أعتقده أنا في نفسي. عقدنا صفقة يا «دومني»، هذا الصباح. أنت زوجتي، ولن أدعك تذهبين. وأحست أنه يعني كل كلمة نطق بها، كان ذلك مسطورًا على صفحة وجهه، الوجه الجميل، القاسي، تنبعث من عينيه إشعاعات تطاردها، وتخيفها. وفجأة تخلصت من ذراعيه، وقفزت من الشرفة الكبيرة، وأسرعت بجنون في اتجاه الشاطئ. وتقاذفتها الرياح الباردة، وتعثرت فوق الرمال بحذائها ذي الكعب العالي. فوقها كان القمر مختفيًا وراء السحب، يلقي عليها ضوءًا باهتًا من الظلال.

وألقت نظرة مذعورة خلفها. كان «بول» يتعقّبها. وفي الضوء الخافت بدا وجهه شيطانيًا. وانطلقت تجري بكل قواها. ويأس غريب دفعها إلى الهرب منه، حتى إنها لم تتبين مدى قربها من البحر والصخور الناتئة عند طرف الشاطئ. وفجأة ارتفعت أمواج البحر. وأطلقت «دومني» صرخة عندما تعثّرت وسقطت على صخرة. ثم شعرت بموجة هائلة تغطيها، وتسحبها. وأصابتها برودة الماء بصدمة بدأت تفقدها الوعي. لكن صوتًا هادرًا كان يتردد في أذنيها:

– «دومني»... «دومني» مصحوبًا بكلمة يونانية ضاعت وسط هدير الأمواج. وقفز «بول» بعدما خلع حذاءه، غير عابئ بالعاصفة وسبح بقوة في اتجاه الذراع النحيل الذي كان كل ما ظهر له من زوجته. وعلى ضوء البرق بدأ يلمح وجهها المذعور. وبعد لحظة، كان يضمّها وسط الأمواج بينما تشبثت هي به بعنف كتشبث الإنسان بالحياة وساعدها على رفع رأسها فوق الماء، وبدأت تنتبه، وتدرك من هو منقذها... «بول»... زوجها، الذي تركت جسمها المذعور في حمايته.وحملها حتى الشاطئ، وصعد بها سلالم الفيلا، ودلف إلى غرفة الجلوس من خلال الشرفة الكبيرة. وارتجفت «دومني» بين ذراعيه، وسعلت قليلا، عندما نظر إليها تساقطت المياه من شعره الداكن على وجهها، وفتحت عينيها الزرقاوين وتحركت شفتاها بلا صوت ترددان اسمه.. وقال هو بمنتهى الرّقة:

– كل شيء على ما يرام يا طفلتي الحمقاء، أنت الآن في أمان. وأسرع إلى الأريكة البيضاء بجوار المدفأة، وضغط على الجرس مستدعيًا «يانيس»، الذي أقبل ليجد «بول» راكعًا بجانب الأريكة، مقرّبًا من شفتي «دومني» المرتجفتين كأسًا من الشراب. وحملق الخادم إليهما. وقال «بول» بلهجة

جادة:

- كنا نتنزه على الشاطئ، وسقطت زوجتي في الماء. أخبر «ليتا» بأنني أريد زجاجات ماء ساخن في سرير زوجتي حالا. وأيضًا أن تعد لها حمامًا ساخنًا. وأحضر لي إزار الحمام السميك ،بسرعة. وجرى «يانيس» إلى المطبخ، وباللغة اليونانية شرح لـ «ليتا» ما حدث، فبدت الدهشة في عينيها، وقالت:

- هذه كارثة ليست علامة طيبة يا «يانيس». يُقال إن من يغنّي في الصباح يبكي قبل الصباح التالي.

- ما الذي تتحدثين عنه أيتها المرأة؟ وحدق «يانيس» إلى زوجته بينما كانت تملأ الزجاجات بالماء الساخن. فقالت:

- ألم تسمعه يغني قبل الإفطار هذا الصباح؟ عروسان يتنزهان على الشاطئ في ليلة عاصفة... أليس ذلك غريبًا؟

- تعتقدين أنهما تشاجرا؟

- أظن أنه من الأفضل أن تسرع بإحضار إزار الحمام، وإلا ملأ البيت صياحًا. وبعدما أحضر «يانيس» الإزار لسيده، قال «بول» لـ «دومني»:

- سأخلع ثيابك المبللة، لا تقاوميني وإلا عرضت نفسك للإنهاك أكثر مما أنت عليه الآن. وكانت بالفعل منهكة جسمانيًا وعقليًا، وارتجفت مثل قطة مبللة. كانت نظراته ولسانه أبويّة، وكان حانيًا وهو يلفها في الروب، عندما رفعها عن الأريكة، تركت ذراعها يلتف حول عنقه، وظلت على هذا الوضع وهو يصعد بها السلالم إلى جناحهما الأبيض، حيث كانت «ليتا» في انتظارهما. فقال لها:

- أعطيها حمامًا ساخنًا ثم ضعيها في سريرها، وناوليها كوبًا من الحليب الساخن. وأومأت «ليتا» برأسها، وقالت «دومني» وهي تقاوم ضعفها:

- تصبح على خير يا «بول»، أنا، أنا آسفة على خروجي وسط العاصفة.

- أنا أيضًا آسف. على أية حال ، انسي ما حدث، وحاولي النوم. سأراك في الصباح. وانصرف إلى غرفته مغلقًا الباب خلفه جيدًا. وبعد لحظات قليلة لحق به «يانيس» وقال:

- أعددت لك حمامًا ساخنًا يا سيدي. وفي شرود سأل «بول»:

- ماذا قلت يا «يانيس»؟

- أنت مبتل تمامًا يا سيدي، الحمام جاهز. وابتسم «بول» وربت ذراع خادمه شاكرًا. واستسلمت «دومني» للنوم بمجرد أن انتهت من شرب الحليب. كان نومًا ثقيلا في البداية، بلا أحلام، ثم فجأة، حلمت أنها تجري على شاطئ بارد. تسمع هدير الموج، وتحس بكعبها العالي يغوص في الرمال، وكان القمر يطل عليها من خلال السحب. وشيئًا ما كان يتعقبها. واستدارت وألقت نظرة سريعة، فرأت قطًا ضخمًا يطاردها تشع عيناه بريقًا ذهبيًا مخيفًا. كانت متأكدة أن الحيوان إذا أمسك بها، فسيمزقها إربًا. وأخذ يتقدم ويتقدم، وعندما أوشك أن يمسك بها، صرخت عاليًا.

- «دومني»، طفلتي، ماذا حدث؟ وأفاقت على الصوت، وتلاشى الكابوس، ووجدت النور مضاء، و «بول» منحنيًا فوقها، ممسكًا بكتفيها بيدين دافئتين ثابتتين. وعاد يقول بخبث وقلق معًا:

- هل من عادتك أن تصرخي في نومك؟

- هل... هل صرخت حقًا؟ وتأملته على الضوء الخافت، خصلات شعره الداكن متهدّلة فوق جبينه. والبيجاما السوداء الحريرية مفتوحة، يظهر منها صدره العريض الكثيف الشعر. وسألت:

- كم الساعة؟ هل اقترب الصباح؟

- جاوزت الساعة منتصف الليل بقليل. ثم انفرج ثغره عن ابتسامة كشفت أسنانه البيضاء و قال مازحًا:

- أرجو فقط ألا يكون «يانيس» وزوجته سمعا صرختك. وهزت كلماته قلبها،ورغم ذلك وجدت نفسها تبتسم وتقول هامسة:

- أعتقد أنه كابوس. يا للغرابة! لم يحدث لي ذلك منذ كنت طفلة. ونظر إليها «بول»، ثم جلس على حافة سريرها.. وسألها:

- هل كان كابوسًا يتعلق بي؟ ولكني يا «دومني» لن أسيء إليك أبدًا. ألا تعرفين ذلك؟ وأمسك بيدها ورفعها إلى قلبه، وضغطها. وعلى الضوء الباهت تأملت «دومني» وجهه، ومن جديد لمحت معاناة الوحدة على ملامحه فظلت راقدة بلا حراك وهي ترنو إليه بعينيها الزرقاوين الواسعتين. كانت ترى غريبًا ليس سوى زوجها وفي اليد التي ضمها إلى قلبه الغريب، الأجنبي، المعقّد، لمحت الخاتم الذهبي الذي يؤكد حقوقه عليها.

- 3 -

عندما استيقظت «دومني»، كانت أشعة الشمس قد تسللت من خلال ستائر حجرة النوم لكن خلال لحظات ظلت غير قادرة على معرفة مكان وجودها. وتجولت ببصرها في أرجاء الحجرة، ثم وقع نظرها على صينية الشاي الموضوعة على مائدة بجانب سريرها. وحدقت إلى آثار فوق الوسادة المجاورة، وفي لمحة عادت إليها ذاكرتها.. لقد تزوجت «بول ستيفانوس»، اليوناني الوسيم الغامض، الذي يملك خطوطًا للملاحة

البحرية، والذي سرق منه ابن عمها «دوغلاس» مبلغًا كبيرًا. وكانت يداها ما زالتا تشعران بملمس كتفي «بول» العريضتين الصلبتين، وعقلها ما زال واعيًا للكلمات اليونانية الغريبة التي همس بها محمومًا في الليلة الماضية. وتذكرت أنها استغرقت في النوم قربه. جلست وسكبت لنفسها فنجان شاي. ورشفت منه بابتسامة على شفتيها. ودنت باسترخاء إلى يدها اليسرى حيث خاتم الزواج، مشيرًا لها بمستقبل لا تجسر على التفكير فيه. وأخذت حمامًا ثم ارتدت بنطلونًا وبلوزة بيضاء من الحرير، وبعدما مشطت شعرها، عقصته إلى الخلف بمشبك، ولمحت في المرآة النظرة الجديدة في عينيها، نظرة المعرفة العميقة الغامضة. وارتسمت على فمها ابتسامة وهي تتأمل عنقها الطويل... إلا أن امتلاكه إياها في الليلة السابقة لم يفزعها. ولمحت احتقانًا ينساب إلى وجنتيها، واستدارت بسرعة لتهرب من عينيها. وعندما دخلت غرفة الطعام، كان «بول» أمام المائدة يقرأ صحيفة الصباح ورفع رأسه وابتسم قائلًا:

- صباح الخير يا سيدة «ستيفانوس». ووقفت في حياء بعدما ردّت التحية، ثم جلست بدورها. ولاحظت الشمس تلقي بأشعتها على شعر «بول» الداكن. واطمأنت إلى أن عاصفة الأمس انتهت على خير، وأصبح الجو صافيًا، وأبدت هذه الملحوظة لـ «بول» الذي سألها:

- هل نذهب إلى «لوو» بالسيارة، أم تفضلين السير؟

- دعنا نسير.

- حسنًا. وصبّ لها القهوة، وتلامست أصابعهما وهو يقدم لها الفنجان. والتقت عيناهما وسمعته يقول:

- تلاشت الظلال من عينيك هذا الصباح يا «دومني». وخيّل إليها أن هذه الظلال القاتمة استقرت في عينيه، لكنها ما لبثت أن تبينت وهم

أفكارها عندما رأته يبتسم في مرح طفولي، ثم يطلق ضحكة قائلا:

– يسرني أن حادثة الأمس لم تصبك بأذى.

– إنني بخير. ولم تنظر إليه لكنها أحسّت فجأة بالدماء تتصاعد إلى وجنتيها. وسألت:

– هل أنت بخير؟

– بكل تأكيد يا زوجتي العزيزة. وفتح ذراعيه مثل قط قوي سريع الحركة، ولاحظت على السترة التي يرتديها علامة بيت أزياء مشهور في «اسكتلندا»، فسألته عمّا إذا كان قد زارها، فأجاب:

– لقد سافرت إلى أماكن عديدة، ولكني أشعر دائمًا باللهفة للعودة إلى «أنديلوس». الشمس هناك حارة يا «دومني»، وعليك أن تأخذي حذرك حتى لا يحترق جلدك الإنجليزي الرقيق وشعرت بخفقان عصبي في قلبها لإشارته إلى الجزيرة حيث ينتظرها مستقبل مجهول، وقالت:

– بل سأتعرض للشمس قدر الإمكان، لأكتسب سمرتك نفسها. وأسند ذقنه إلى يديه، وأظهرت ابتسامته مدى جاذبية فمه، وقال مازحًا:

– هل تجرئين على إفساد هذه البشرة البديعة؟ إنك ملكي الآن يا سيدة «ستيفانوس». ببشرتك البيضاء وكل شيء فيك. علقت ساخرة:

– بالطبع، اختطفتني كأسيرة، أليس كذلك؟ واختلج صوته وهو يسألها:

– هل أنت نادمة يا «دومني» على ليلة الأمس؟ كنت جميلة للغاية ورائعة. لم أستطع أن أتركك. أعرف أنني لست رجلا يسهل اكتشافه أو التعامل معه لكني أعتقد أنه يمكنني أن أسعدك، إذا سمحت لي بذلك. والتقت عيناها بعينيه. وتذكرت من جديد السعادة المتبادلة غير المتوقعة التي غمرتها ليلة الزفاف، والتي كانت نهاية غريبة ليوم

عصيب. وتركته يحتضن يدها، ويلمس خاتم الزواج الذهبي في أصبعها، ثم قالت:

– حدثني أكثر عن الجزيرة. ولم تسأله من قبل مطلقًا عن وطنه وأهله بمثل هذه اللهفة. والآن عرفت أن أخًا يصغره مات منذ ثمانية عشر شهرًا، وله أيضًا أخت غير شقيقة تعيش مع عمته «صوفيولا» وابنها «نيكوس»، في بيت قرب ميناء «أنديلوس»، وعمته تزوجت من ضابط بحري. فالبحار والسفن في دماء كل أفراد أسرة «ستيفانوس»، و«نيكوس» يستعد ليصبح شريكًا في خطوط «بول» البحرية عندما يبلغ الواحدة والعشرين من عمره. وسألته عن اسم أخته التي لم تكن تعرف بوجودها، وأخذت تتأمله، مدركة أنها لا تعرف عنه إلا القليل. وابتسم قائلا:

– اسمها «كارا» وهي في السادسة عشرة من عمرها وكثيرة الحركة، ولكن لطيفة ومرحة كالغزال البري.

– لا أعرف إلا القليل عنك وعن أهلك يا «بول». واستقرت عيناها على الندبة، واستأنفت قائلة:

– مثلا، كيف جرحت؟

– آه، هذه قصة طويلة، ربما حكيتها لك ذات يوم، لكن ليس هذا الصباح. وابتسم وظلت عيناه جامدتين. وبدافع خفي نهضت «دومني»، ودارت حول المائدة لتقف بجانبه. وأمسك بها في صمت. ثم جذبها وتأمل وجهها بعينيه، «هذاهو «بول»» ردّدت ذلك لنفسها، ودخل «يانيس» بعدما طرق الباب، وانتظر لحظة واحتقن وجه «دومني» وهمّت بأن تفلت لكنه تمسّك بها دون حرج، بينما كان «يانيس» يسأل عمّا إذا كانا يرغبان استعمال السيارة فينظفها. ولكن «بول» أخبره بأنهما سيتنزّهان سيرًا على الأقدام حتى مدينة «لوو»، وسيتناولان غداءهما

هناك. وانحنى «يانيس»، لكنه لم يستطع أن يحتفظ بجديته المعتادة عندما وقع بصره على «دومني» بين ذراعي سيده، وقد احتقنت وجنتاها بشدة. واستطرد «يانيس» يقول:

– أمر آخر يا سيدي. لم أستطع تنظيف الأريكة، فمياه البحر والرمال أتلفت حريرها الرقيق. وابتسم «بول» وهو ينهض واقفًا وقال:

– لا تقلق يا «يانيس»، ربما تستطيع «ليتا» تدبير غطاء مؤقت للأريكة. وسأعوض أصحاب الفيلا تعويضًا مناسبًا. ثم إننا لن نبقى هنا أسبوعًا. لقد اتصلت تليفونيًا بالمسؤولين لتغيير موعد الحجز في الطائرة– سنطير إلى «أثينا» صباح غد. وكان لنظرة الدهشة في عيني «يانيس» صداها في عيني «دومني» عندما حدقت إلى وجه «بول» وسألت:

– لماذا التغيير؟

– لنقل إنه الحنين إلى وطني وبيتي، لا أستطيع الانتظار طويلا يا زوجتي الصغيرة قبل أن أريك جزيرة «أنديلوس». وربما كان صادقًا، لكن «دومني» بدأت تعرف أنه عندما يكون شارد الذهن، فإما أنه قلق، أو أنه يضيق بشيء ما. وأحسّت هذه المرة بأنه قلق ولهذا الأمر صلة بها. وبعد نصف ساعة بدأت مسيرتهما إلى «لوو». كان يومًا مشرقًا من أيام الربيع، وأحسّت «دومني» وهي الشغوفة دائمًا بالحياة في الهواء الطلق، بالتجاوب مع الجو، ومع المناظر الطبيعية، وأيضًا مع الرجل الذي كان يسير بجانبها. شعرت بأنها عروس في ذلك اليوم، وغمرتهما نظرات إعجاب كثيرة وهما يدخلان المدينة، ويتجهان إلى المصرف، كانا في طريقهما إلى استرداد الشيكات المزورة. وفكّرت «دومني» في تلك المخلوقة الخائفة التي تسللت إلى حجرة «بول» في الليلة السابقة، محاولة العثور على هذه الشيكات وإتلافها، حتى تكون حرّة في الهرب من ذلك الزوج.

واختلست نحوه نظرة. كانت أشعة الشمس تنعكس فوق شعره الأسود المجعّد. وكان يضع نظارة شمس قاتمة على عينيه، إذ كانت عيناه– كما أخبرها– لا ترتاحان إلا في الضوء الخافت، وكان يعاني صداعًا إذا لم يحجبهما عن الشمس من وراء النظارة. ظهر ذلك الغريب الغامض الذي اقتحم حياتها، وأرغمها على الزواج. ذلك الرباط الذي لن ينفصم إلا بموت أحدهما. وبينما ذهب هو إلى المصرف، تفرجت «دومني» على واجهة محل لبيع التحف. وبدافع خفي دخلت، وسألت عن ثقالة ورق صغيرة من نحاس على شكل حيوان أشبه بحصان له قرن... أرادت أن تقدمه لـ «بول». لسبب أنثوي غريب! وأقبل «بول» من المصرف، في الوقت الذي خرجت هي من المحل. وهرعت إليه، وشعرها العسلي الكثيف يتطاير. ومدّت يدها إليه بالهدية قائلة:

– انظر، هل تروق لك؟ وابتسم قائلا:

– هل كنت تبحثين لنفسك عن لعبة؟ كم ثمنها؟ سأدفعه.

– لا يمكن، هذه هدية منّي، سيبدو النحاس لامعًا جميلا كعملة جديدة بعد أن أفركه.

– أحقًا تقدمينها لي؟ سكتت. ثم استطردت قائلة:

– اعتبرها هدية الزواج، لا يمكنني أن أقدم شيئًا أغلى منها. همس «بول»:

– إنها هدية غالية لأنها منك. وأعاد النظارة فوق عينيه، فلم تستطع أن تقرأ فيهما الأثر، ولكنها أحسّت من نبرات صوته أنه أحب هديتها الصغيرة. وتراقصت ابتسامة على شفتيه وقال وهو يمدّ يده إليها:

– ها هي الشيكات يا «دومني»، لكن أخشى ألا أستطيع إحراقها وسط الطريق.

– إذن ننتظر حتى نعود إلى الفيلا. وخفق قلبها بعنف، كانت تريد إتلاف الشيكات بعيدًا إلى الأبد، لكنها أحسّت أن من واجبها أن تظهر لـ «بول» أنها تثق به. وصاح هو:

– كلا... يجب أن ننتهي من أمرها. وتلفّت حوله، ورأى سلة المهملات قريبة، وبسرعة مزّق الشيكات قطعًا صغيرة، وتطاير بعضها، ولمحت خط «دوغلاس» عليها، ولمحت أيضًا اسم «بول». وتناولا طعام الغداء في مطعم قديم، ثم وجدا مكانًا منعزلا على الشاطئ الرملي، وتمددت «دومني»، وتوسدت ذراع «بول»، وهي تنصت إلى هدير الموج، ونبضات قلب زوجها الغامضة. وأحسّت بالدفء يسري في كيانها. وأيضًا بالراحة، وهي في رفقة هذا الرجل، الذي تساءلت عمّا إذا كانت ستحقد عليه، لأنه انتزعها من «فردان»... ومن حياتها الوديعة. وداعب شعرها وقال:

– «دومني»، سأطلب منك أن تعطيني وعدًا، وسأتوقع منك الالتزام به.وحدقت إلى وجهه الذي بدا عابسًا. وأحست أنه ما زال غريبًا عنها. وسألت:

– ما نوع الوعد الذي تريده منّي؟

– أن تبقي معي، مهما يحدث من تقلبات الزمن. عندما نترك «إنجلترا» لنذهب إلى اليونان. وانتفضت جالسة.. وأزاحت شعرها إلى الوراء بعيدًا عن عينيها. وتنهدت وسألته في قلق:

– ما الذي يمكن أن يحدث يا «بول»؟

– ربما عدت إلى كراهيتي مرة أخرى. وأمسكت بذراعه وقالت:

– إنك تخيفني يا «بول»، لقد كنّا سعيدين اليوم.. هذه السعادة يمكن أن تستمر.

– من يمكن أن يتنبأ بالمستقبل؟ والتقط ثقالة الورق الصغيرة وأخذ ينظفها من الرمال التي علقت بها، ثم عاد إلى القول:

– هل تعرفين إلى أي شيء يرمز هذا الحيوان الذي يشبه الحصان؟ وهزّت رأسها بالنفي. ولمحته عابسًا شاردًا فشعرت بأصابع باردة تعتصر قلبها– مزاجه المفاجئ– من دقائق كان يعانقها فوق الرمال، والآن تعكر مزاجه وبدا مكتئبًا، وأعاد النظارة القاتمة إلى عينيه، وقال:

– هذا الحيوان يرمز إلى أكثر الأمور مراوغة في العالم. السعادة الحقيقية. إنه مخلوق وهمي، خيالي، وكذلك شأن السعادة: مجرد وهم بالنسبة إلى البعض قد يمزقها الألم والكوارث، ولكن ذلك في الحقيقة لا يقضي عليها تمامًا. وبالنسبة إلى البعض الآخر يوجد شق في الأساس منذ البداية، ولذا قد تتداعى أمام أول عقبة. وأساس علاقتنا به شق يا«دومني» وكلانا يعرف ذلك. وارتجفت لسماع كلماته، بينما استطرد هو يقول واضعًا يده فوق يدها:

– يجب أن آخذ منك وعدًا بأنك ستستمرين معي مهما حدث. وبدا كلامه غامضًا، وشعرت أنه يئن تحت وطأة الشعور بالذنب. وذاب قلبها ونظراتها تستقر على الندبة التي لم يشأ أن يحدثها عنها وقالت:

– أنت زوجي في السراء والضراء. إننا لا نستطيع أن نحطم رابطة الزواج، وإن كنا نستطيع أن نحطم أشياء أخرى.

– إذن فهذا وعد؟

– إنه وعد يا «بول». وتنفس الصعداء ثم أشعل سيجارة وكان لا يزال شاردًا، إذ ظل عود الثقاب بيده حتى أحرق أصابعه. واستمرت «دومني» تراقبه، وسرت عندما بدت عليه علامات الارتياح بعد قليل. فجأة سألته:

– أنت لست يونانيًا تمامًا، أليس كذلك يا «بول»؟ واستدار في دهشة:
– كيف عرفت؟
– من عينيك، عندما أنظر إليهما جيدًا، وأيضًا من تكوينك.
– جدتي إنجليزية، ولكن ما دخل تكويني في كوني لست يونانيًا مائة في المائة؟ ألم يكن قدماء الإغريق طوال القامة؟ وابتسمت.. واقتربت منه بوجهها قائلة:
– وهل اخترت أن تتزوج إنجليزية من أجل جدتك؟
– ليس تمامًا لكن في أية حال، للإنجليزيات سحر غامض.
– تعني أننا لا نعرض بضاعتنا كلها في واجهة المحل؟ وضحكت ووجدت أصابعها وأصابعه وسط الرمال، وقال وهو يلتهمها بعينيه:
– تمامًا، الرجل دائمًا ينتظر منهن غير المتوقع.
– هل عرفت كثيرات من بنات وطني يا «بول»؟
– تراني أثرت بعض غيرتك؟
– كلا. وأطلقت ضحكة عصبية، بينما كان هو يعتصر أصابعها بين أصابعه. واقتربت من صدره، وخبأت فيه وجهها خجلا من الأحاسيس التي استبدت بها انبهارًا برجولته. وتمتمت:
– يالك من متوحش! وضمها في قوة وقال:
– إن من يوصفون بالمدنية ليسوا كذلك تمامًا يا أسيرتي، لكن أما زلت أخيفك؟ أما زلت في نظرك الرجل الجامد القاسي؟ لم تكوني بالأمس خائفة عندما ضممتك، وامتزجت نبضات قلبينا. همست في حياء:
– لا أستطيع، لا أستطيع أن أتكلم عن ذلك. وألقى سيجارته فاستبدت بها أحاسيس عنيفة، وفي الوقت نفسه مخيفة وأحسّت أنها لا تستطيع أن تفهمه أبدًا. أو أن تعرف القوى الخفية التي تحركه، وتجعله يتقلب

بين الرقة والعنف. ما الذي كان يريده منها؟ الحب؟ ولكن كيف لها أن تخبره بأنها تحبه، وهي نفسها لا تعرف حقيقة مشاعرها نحوه؟ وعادا إلى الفيلا مع غروب الشمس، وعند دخولهما الصالة، وقع بصرهما على مظروف أصفر بجانب الهاتف، كانت برقية باسم «دومني». وفتحت المظروف بأصابع مرتجفة، وراقبها «بول» وهي تقرؤها، وعلى وجهه قناع غامض. وعندما رفعت عينيها أخيرًا، نظرت إليه من رأسه إلى قدميه. أحسّت كما لو كانت قد أمضت الثماني عشرة ساعة الأخيرة نائمة تحلم والآن استيقظت من جديد، استيقظت على الكراهية التي لم تقاومها إلا لفترة محدودة. وكان «بول» هو الذي بدأ الكلام، قال:
– هذه البرقية من عمك طبعًا. وناولته إياها دون أن تنطق. وقرأ:
– عرفت بأمر الشيكات من «دوغلاس»، اتصلت بـ «بول» هاتفيًا ليلة أمس. عودي يا عزيزتي. وبصوت بارد قالت «دومني»:
– إذن اتصل بك عمي ليلة أمس؟
– هذا صحيح يا عزيزتي.
– رغم علمك بأن «دوغلاس» أخبر والده بالأمر كله، ورغم ذلك جئت إليّ و..و..
– لم أتعمد ذلك يا «دومني»، وأعتقد أنه لا يجوز أن يصيح أحدنا في وجه الآخر في الصالة... أمام «يانيس» وزوجته. وأمسك بذراعها ورافقها نحو غرفة الجلوس وأغلق الباب ثم أسنده بظهره وقال بهدوء:
– جئت إليك ليلة أمس لأنك صرخت في أثناء نومك، وكنت قلقًا عليك. ولكن.. لو أنك رفضت وجودي لعدت إلى غرفتي. إنك لم تصديني ولذلك.. نسيت كراهيتك لي ليلة أمس ولا يمكنك أن تتذكري أنك كنت لطيفة معي طوال هذا اليوم. وأطلقت «دومني» ضحكة متوترة. وتأملته

إذ فقد سحره في عينيها وقالت:

- أردت أن تتمتع بلعبتك الجديدة، التي تمتلكها، وكان لك ما أردت. أنت قلت ذلك في هذه الغرفة ليلة أمس وكان عليّ أن أفي بالتزاماتي الزوجية سواء رغبت في ذلك أم لم أرغب. ولابد من أنك مسرور لأنك نلت ما تريد دون مقاومة.

- كلا يا «دومني»، كلا.

- لا تلمسني. لا تلمسني وإلا أصابني الغثيان من مشاعري الحمقاء، ومن اعتقادي لفترة أنني يمكن أن أتعلق بك. لابد من أنك طوال اليوم كنت تسخر منّي! عندما مزّقت الشيكات، عندما تركتك تقبلني فوق الرمال حسنًا، إذا كان جسمي هو ما أردت. إذن فلك ما اشتريت، ولكنك بكل مال الدنيا لا يمكن أن تشتري ثقتي أو حبّي، وزوجة دونهما لا تعني شيئًا يا «بول. وتجمدت تعابير وجهه، وبدا كما لو كان تمثالا من حجر. وقال:

- احتفظي بحبك لنفسك، هل طالبتك به مرة؟

- كلا، ليس بالكلمات، لكن لا أعتقد أنك لست إنسانًا حتى تستمتع طويلا بصحبة زوجة تكرهك. كيف تجرؤ يا «بول» على حرماني من حرية الاختيار بين «فردان» و «أنديلوس»؟

- اليوناني وحده يستطيع أن يتحدى الأقدار، ولو أني تركتك ليلة أمس تتحدثين مع عمك، لهربت إلى «فردان»، إلى عمك، هل هذا كل ما تطمعين به في الحياة؟ أن تظلي فتاة تقوم بكل الأعمال في بيت ليس بيتها، بيت مرهون حتى آخر جزء فيه!

- «فردان» بيتي، ووطني، أحب كل حجر فيه، لا أستطيع أن أشعر بذلك بالنسبة إلى بيتك.

- ولكنك ستعيشين هناك معي.

- لأنني أعطيتك وعدًا، ولن أنكث بوعدي.

- شكرًا يا «دومني». وتجمدت نظراتها وهي تقول:

- لا تشكرني يا «بول»، لأنك ستندم فيما بعد على أنك جئت إلى «فردان» والتقيت بي. وفتحت الباب، واتجهت إلى السلم. كانت تنتفض انفعالا وشعرت بالضعف وهي تصعد الدرجات، واضطرت أن تستند إلى سياجها، وتنفست الصعداء عندما وصلت إلى حجرتها، واستقلت فوق سريرها، ودفنت وجهها في الوسادة لم تستطع البكاء تجمدت الدموع في عينيها. وشعرت بثقل خاتم الزواج في أصبعها أشبه بالقيد الذي يربطها برجل بلا قلب: رجل أرغمها على زواج لا حب فيه. تحدث عن الشق الموجود في نسيج علاقتهما وقال إن أول عقبة يمكن أن تحطم هذه العلاقة... كان يعرف أنها لن تغفر له خداعه وسخريته من ثقتها به ليلة أمس. وسرت رجفة في أعماقها وهي تتذكر الكلمات التي همست له بها:

- اترك ذراعيك حولي يا «بول»... ودعني أنام هكذا.

- 4 -

حان موعد العشاء، وارتدت «دومني» ملابسها، رغم رغبتها القوية في أن تغلق عليها غرفتها، ولا ترى «بول» أبدا. كانت إنجليزية حقيقية، وما كانت لتلوذ بركن مظلم تخفي فيه نفسها لمجرد أنها جرحت. كان عليها أن تظهر بوجه شجاع لتواجه عدوها ببقايا ما ترك لها من كبرياء. وأحس «بول» وهو يتأملها عبر مائدة العشاء، أن الفجوة بينهما

WWW.REWITY.COM

لم تكن أبدًا على مثل هذا الاتساع. كانت مهذبة.وكانت تنصت إليه، وترد عليه، وهو يخبرها بأنواع السفن المختلفة التي تملكها شركته، بل إنها تكلفت ابتسامة صغيرة عندما سرد عليها بعض نوادره عن الركاب. لكن ألمًا قاتمًا كان يومض في عينيها الزرقاوين بين الحين والآخر. وذهبا بعد العشاء إلى غرفة الجلوس حيث أعد «بول» آلة العرض وشاشة عرض عليها مجموعة الأفلام التي صورها بنفسه لرحلاته، إذ كانت هذه هوايته. كانت الأفلام مليئة بالمناظر الخلابة، ولكن لم تكن توجد لقطة واحدة يظهر فيها وسط مجموعة أصدقاء، أو حتى رفيقة واحدة. وعندما انتهى العرض، وأضاء النور سألته «دومني»:

– هل تسافر دائمًا عندما تكون في إجازة؟ سكب شرابًا،وابتسم قليلا وهو يناولها كأسًا وقال:

– أحب أن أنطلق وحدي، إنه شذوذ غير مؤذ أليس كذلك؟ على أية حال فإني أصحب «يانيس» معي كمرافق، لأنني كسول للغاية لا أعرف كيف أرتب ملابسي. وأخذت تتأمله بفتور ولا مبالاة. وقالت لنفسها «رجلا بمثل وسامته لا يمكن أن يقضي أمسياته دائمًا وحيدًا، حتى لو كان ذلك شأنه في النهار لابد من أن نساء أخريات كن في حياته. نساء أحسسن بجاذبيته، وحاولن ترويضه. ولكن لا ترويض لرجل مثله»! ولما كانت تحاول أن تنسى أفكارها الحزينة في أثناء كلامه، قالت متعمدة:

– حدثني عن «اليونان». ورفع كأسه لتحيتها، ثم استلقى في مقعده، بينما ألقت الأضواء ظلالها على وجهه. وقال:

– «اليونان» أرض المتناقضات، أرض الشمس المشرقة، والظلال، أرض التسامح والانتقام. بعض الأجزاء قاحلة، والأخرى غنية بمحاصيلها من

العنب والتين والصنوبر. آه الصنوبر. إنه يملأ المكان برائحته الحلوة. وسكت وحدق بعينيه الداكنتين إلى نار المدفأة. وعاد يقول:

– «اليونان» أرض إما أن تحب، أو أن تكره مثل أهلها. والأساطير القديمة ما زالت حية في أطلالها، وعندما تشاهدين مدينة «أثينا» الآن من الصعب أن تصدقي أنها منذ أعوام ليست عديدة، كانت ممزقة ببشاعة. الأخ كان يقاتل أخاه، والكثير من أطفالنا أخذوا عبر الجبال الباردة كقطعان الغنم إلى «ألبانيا» وبلاد أخرى معادية. ما كنت إلا طفلة يا «دومني» عندما حدث كل ذلك. وقالت برقة لأنها عرفت مدى حبه لـ «اليونان»:

– أنت نفسك يا «بول» لم تكن كبيرًا. قال بابتسامة جافة– جافة وحزينة– أشبه بأوراق الخريف عندما تسقط عن الأشجار لتموت على الأرض:

– كنت كبيرًا بما فيه الكفاية لأن أرى الكثير. لكني لا أتكلم على هذا النحو لأستميلك يا «دومني»،أو لأكسب مودتك.

– بالطبع لا، ليس العطف هو ما تريده يا «بول»، أليس كذلك؟ واعتلت ابتسامة شفتيه. وقال:

– أتساءل عما إذا كنت تؤمنين بالروابط القدرية. كان من المحتم أن نلتقي... فما رأيك؟

– أرى أن القوى الخفية ليست دائمًا رؤوفة بالبشر. وأصبح الحديث بينهما متقطعًا. وطالت فترات الصمت، وصارت كل حركة تنمي إحساس كليهما بالتوتر. فعندما بدأت النار تخبو في خشب المدفأة، التقت عيناهما فوقها.وعندما تحركت الستائر، متأثرة بتلك التيارات التي تغزو الغرفة عندما تخفت فيها نار المدفأة. التقت عندها مرة أخرى

عيناهما. وعقدت «دومني» يديها في حضنها. يجب عليهما أن ينهضا الآن، وأن يصعدا إلى الطابق العلوي. لا يستطيعان البقاء إلى مالا نهاية في غرفة الجلوس التي بدأت تضيق بوجودهما وتحفزهما على الخروج منها. ثم فجأة بدأت الساعة تدق، وتعلن منتصف الليل، وقفز «بول» واقفًا ولمحت «دومني» الخشونة المباغتة التي اكتسى بها وجهه وهو يصيح:

– اصعدي إلى الطابق العلوي فلن ألمسك، أعرف أنك تشمئزين لمجرد رؤيتي. ونهضت بدورها، ووضعت كأسها جانبًا، وكان وجهها خاليًا من التعبير وهي تقول:

– تصبح على خير يا «بول». وردّ عليها التحية باليونانية، وخرجت من الغرفة.. رشيقة في ثوبها الأزرق متثاقلة قليلا في مشيتها كطفلة صغيرة متعبة. وتتبعها «بول» بنظراته حتى أغلقت الباب خلفها، وحينئذ تقلصت أصابعه حول الكأس، فانكسر محدثًا صوتًا، وسالت قطرات المشروب على يديه. لم تسمعه «دومني» يدخل غرفته المجاورة إلا في وقت متأخر. وتمددت متوترة وهي تفكر «يجب ألا أصرخ الليلة إذا نمت»، لكنها في النهاية وقد أنهكتها عواطفها الممزقة– نامت نوما عميقًا، حتى أيقظتها «ليتا» حاملة إليها شاي الصباح. وكان عليهما أن يغادرا المكان في الثامنة والنصف، لكن كان على «دومني» أن تتحدث مع عمها قبل الرحيل. حيث كان التحدث إليه البارحة مستحيلا، إذ كانت في حالة اضطراب لا تسمح لها بذلك. ولكن هذا الصباح استردت بعض الهدوء، وتيقنت أنها تستطيع أن تبدو مقنعة عندما تقول لعمها إنها متشوقة لرؤية الجزيرة التي وُلد فيها زوجها، حيث سيعيشان. وكان «بول» يقف في غرفة الجلوس مع «يانيس» أمام الحقائب، عندما

أدارت «دومني» الرقم الذي يوصلها ببيت طفولتها. كانت تريد أن تطمئن عمها «مارتن» إلى أنه لا حاجة به إلى القلق على «دوغلاس» ودعت الله في صمت أن تستطيع إقناعه بأنها سعيدة في زواجها بـ «بول ستيفانوس». وأقبل زوجها من غرفة الجلوس بينما كانت في انتظار توصليها بـ «فردان»، ونظرت إلى وجهه الطويل الأسمر وهو يصعد السلم، ويمشي في الممر المؤدي إلى الجناح الأيبض. تركها تتحدث بحرية ولكنها لم تشعر نحوه بالعرفان، لأنه لم يتصرف بشهامة إلا بعدما أملى إرادته. ولكن الدفء أخذ يسري في صوتها وهي تقول:

– عمي «مارتن»... كيف حالك أيها العزيز! وتكلمت «دومني» مع عمها خمس عشرة دقيقة. وقالت له بحزم إنه يجب ألا يقلق بشأن «دوغلاس». وإن كل شيء أصبح على ما يرام الآن، وإنها متأكدة أنه بعد تورطه مع «بول» لن يعود ثانية إلى مائدة القمار. أجل، «بول» كان مصدر إرهاب، كلا، بالطبع، فهو لم يرهبها هي... يا لها من فكرة! وأطلقت ضحكة، واستطردت تقول بسرعة إنها شاهدت بعض الأفلام عن «اليونان»، عرضها «بول» في البيت، وإنها تبدو بكل تأكيد بلادًا أثرية رائعة. وقال عمّها بصوت متهدج:

– سأفتقدك يا «دومني». هل أنت متأكدة أنك سعيدة مع «بول»؟ ونظرت إلى الجدار الذي يعلو منضدة الهاتف، وقاومت مخاوفها من الحياة التي تنتظرها مع رجل لا يحبها وقالت تطمئن عمّها:

– يستطيع أن يكون لطيفًا، وهو رجل وحيد للغاية. وكان «بول» في تلك اللحظة يهبط السلم، وفهمت من وجهه أنه حان الوقت لتودع عمها. ولم تعد تخشى أن يدرك من صوتها أنها غير قادرة على حبس دموعها وهي تقول له:

- وداعًا... وداعًا... سأكتب إليك فور وصولي إلى «أثينا». وتردد صدى الكلمات في ذهنها وهي تخرج لركوب سيارة الأجرة مع «ليتا» و «يانيس»، ولحق بهم «بول» بعدما أحكم إغلاق الفيلا. وانطلقت بهم السيارة إلى المطار. كانوا سيطيرون إلى «باريس»، ومن هناك يأخذون طائرة أخرى إلى «أثينا». بعد الإجراءات المربكة التي تمت بعد وصولهم إلى مطار «أثينا»، ركبوا عربة إلى فندق «هيلينيك» الكلاسيكي الذي كان ذا شرفة واسعة تستخدم مطعمًا ومقاصف للرقص. ومن نوافذ جناحهما كان «الأكروبوليس» يظهر على ضوء النجوم، وذكر «بول» أن سحره التاريخي يتجلى في الليل ومع الفجر. وكان «يانيس» وزوجته قد أعفيا من واجباتهما، وأخذا إجازة، وكان عليهما أن يتوجها بعد ثلاثة أسابيع إلى جزيرة «أنديلوس» قبيل وصول «بول» وعروسه إليها بأسبوع. وشعرت «دومني» بالتوتر لوجودها وحدها مع «بول» كعروس غريبة في أرض غريبة. لكن لم يكن في المستطاع تجنب ذلك، وكان عليها أن تعتاد أنه زوجها عاجلا أو آجلا. كانت متعبة بعد الرحلة الطويلة، لذلك تناولت الطعام ذلك المساء مع «بول» في حجرة الاستقبال في جناحهما، وعندما تمنّى لها نومًا هنيئًا انحنى برأسه الداكن، وطبع قبلة على وجنتها، وفي الحال استدار مبتعدًا وهو يبدو فاترًا. إلا أنها لم تستطع أن تتجاهل الرجفة التي اكتسحتها. وتسللت أشعة شمس «اليونان» الذهبية من خلال نوافذ غرفتها صباح اليوم التالي، وأيقظتها من نومها. وتناولا إفطارًا مكونًا من عصير الفواكه، والكريمة والعسل وفطائر السمسم. بعد ذلك أكلا التين العنبري اللون، وشربا القهوة اليونانية. وهمست «دومني»:

- إنها لذيذة. واستقرت عيناها في سرور على أزهار الليمون وسط أوراقها

اللامعة التي كانت تحيط بسور الشرفة. وقال لها «بول» محذرا:

- لا تشربي رواسب القهوة. تلاعبت بالفنجان الصغير وهي تفكر بأن مرارة الرواسب شأن أشياء أخرى كثيرة تبدو حلوة ثم تترك مرارة في نهايتها. وسأل «بول» وهو يعتدل في مقعده ويشعل سيجارًا:

- ماذا سنفعل هذا الصباح؟ لم تستطع أن تتجنب النظر إليه. كان في شعره بريق أخّاذ تحت أشعة الشمس، وكان يرتدي قميصًا قصير الأكمام، وبنطلونًا ضيقًا. وحلقات الدخان تتصاعد أمام عينيه الذهبيتين، فتضيقان، وتشع منهما نظرة نمر مفترس. وقالت «دومني»:

- جولة لمشاهدة الآثار ستكون شيئًا لطيفًا.

- إذن سآخذك إلى «بلاكا» المنطقة القديمة في «أثينا». وانفرجت شفتاه عن ابتسامة كشفت بياض أسنانه واستطرد يقول:

- ألبسي صندلا لأن الطرق الحجرية قديمة ومتآكلة. وبعد أن تلقي نظرة على المحلات التجارية، ربما تريدين مشاهدة «الأكروبوليس».

- بكل تأكيد. ولمحت قلادة يونانية تلمع من خلال فتحة قميصه ذكّرتها هذه القلادة الملتصقة بصدره بما كانت تحاول جاهدة أن تنساه، عندما أحست بها في الظلام...تلك الليلة الأولى... ونهضت بسرعة، وقالت:

- يجب أن أذهب لأمشط شعري، وأضع أحمر الشفاه. واستدارت وذهبت إلى غرفتها. وتجنبت النظر إلى عينيها في المرآة. وارتجفت يدها وهي تضع أحمر الشفاه، وكان عليها أن تمسحه، وأن تعيد طلاء شفتيها باللون الوردي. وحدقت «دومني» إلى فمها ذي الشفة العليا الرقيقة الحساسة والشفة السفلى السخية الممتلئة. وأحست أنه تمزق عندما استسلم بصمت لفمه الذي قال لها بفتور:

www.rewity.com

- احتفظي بحبك... هل طلبته منك مرة؟ وأشاحت بوجهها بسرعة، ووضعت الصندل في قدميها، ثم أخذت حقيبة يدها، وألقت نظرة أخيرة على صورتها. كانت رقيقة ورشيقة. ولم تتزين إلا بخاتمين: الدبلة الذهبية البسيطة. والخاتم الفيروزي الذي كانت زرقته تضاهي زرقة عينيها. «دومني ستيفانوس» ابتسمت للفكرة وإن ارتجفت لغرابة الاسم. «دومني دان» ذهبت إلى الأبد، تاركة فقط الكيان والوجه اللذين دفعا رجلا إلى طرق ملتوية ليفوز بامتلاكهما.. وابتعدت عن المرآة، ولحقت بزوجها لزيارة «بلاكا» و «الأكروبوليس». وكانت شوارع «البلاكا» مهملة وضيقة، ومليئة بمحلات مفتحة الأبواب كالسوق وبيوت ذات شرفات خشبية... وشعرت «دومني» بأصابع «بول» على مرفقها وهو يشير إلى الثوم والفلفل الأسود في واجهة محل بقالة، والأحذية الشعبية القديمة خارج محل الأحذية، سلال الفاكهة الجميلة، وكان هناك بائع إسفنج يحمل مجموعة أشبه بالبالونات الملونة، وبائع بطيخ يجر عربة خشبية «كارو». واشترى «بول» شرائح من البطيخ، و أكلت «دومني» قطعتها فتلاشى أحمر الشفاه مع العصير، وبدت كمراهقة في إجازة وهي تحملق حولها إلى الناس الذين امتلأت بهم الشوارع الصاخبة الزاهية. وضحكت من فوق كتفها لـ «بول» وقالت:

- إنه مثل زقاق أعرفه في بلادنا، بائع الإسفنج سيختفي إذا دهمته الرياح.وابتسم، واقترب منها قليلا، وقال:

- هل أنت سعيدة؟ وأومأت برأسها. ذلك أن «البلاكا» كانت ذات سحر لا يقاوم. وأمسك «بول» بأصابعها المبللة بماء البطيخ، وصعدا معًا السلالم غير المستوية، ومرا أمام المقاهي القديمة حيث جلسَ الشيوخ أمام أكواب القهوة التركية. يمضغون الكلمات اليونانية. فيبدون كما لو

كانوا يتشاجرون. ورأت «دومني» اليونانيات ذوات الأجسام الضخمة بصحبة بناتهن الرشيقات. ولاحظت أن شبانًا عديدين كانوا على الكثير من الوسامة بشواربهم السوداء وكثيرون بالملابس العسكرية. وأخبرها «بول» بأن الخدمة العسكرية إجبارية. وعندما نظرت إليه لمحت ظلالا تتحرك على صفحة وجهه، ثم نظر جانبًا إلى أحد المحلات، ولم تستطع أن ترى عينيه وكانت نظارته الشمسية في جيب قميصه. لأنه لم يكن يحتاج إليها في ذلك المكان حيث اختفت الشمس وراء سطوح المنازل. ووقف أمام واجهة محل صغير يعرض بعض المصنوعات اليدوية الوطنية. أحذية مطرزة، وحقائب يد، وشرائط حريرية من الخرز المائع للقلق، وكذلك المشابك والأقراط. وقال «بول» وهو ينحني فوق المعروضات:

- دعيني أشتري لك تذكارًا لزيارتك «بلاكا» وخرج من المحل رجل معمم، ووقف يرقب «بول» وهو ينتقي قرطا على شكل قلب. وسأل الرجل عن الثمن، ودفعه له، ثم جذب «دومني»، وعلّق القلبين الزرقاوين الصغيرين في أذنيها. وهتفت:

- القرط رائع يا «بول»، يجعلني أشعر كما لو كنت من جواري الحريم. ولكن «بول» لم يبتسم. وأمسك بها فجأة من خصرها، ورفع ذقنها بيده الأخرى وبدا فمه في مثل عنف ذراعه. وحدق بعينيه الذهبيتين إلى عينيها، وقال في صوت خافت، أجش:

- هل هذا ما تشعرين به؟ مثل جواري الحريم. اللواتي كن يُشترين بالمجوهرات؟ ونظرت إليه مغلوبة على أمرها. وقالت مرتبكة:

- لم أقصد ذلك، كنت أمزح.

- اللاشعور أحيانا يدفعنا إلى نطق كلمات نعتقد أننا لم نكن نعنيها.

ثم حررها من قبضته، وأكملا مسيرتهما إلى «الأكروبوليس» في صمت.. وشعرت «دومني» بالرغبة في البكاء... جواري الحريم! انزلقت الكلمات من فمها لتفسد عليه بهجته بشراء هدية صغيرة لها. ووقفت «دومني» وهي تشعر بضآلتها وسط الأعمدة الشامخة تنظر أعلى فأعلى وتستشعر تناسق هذه الأعمدة وعظمتها وهي أشبه بالأصابع تشير نحو السماء. وأخذها «بول» إلى دهليز العذارى حيث صوّب السيّاح آلات التصوير، وأخذوا يلمسون التماثيل التي بدت كأنها تتحرك، وأراها شجرة الزيتون القديمة التي ما زالت موجودة، رمزًا للأمل. وتسمرت نظراتها وهو واقف على السلم الكبير وقد أغرقته الشمس بأشعتها الذهبية. ولمحت من جديد على وجهه ذلك التعبير، كما لو كانت ذكرى متوحشة داهمته وهو يتأمل عاصمة «اليونان» القديمة. وكان «بول» يحمل معه آلة تصوير، فالتقط لها عدة صور وهي متكئة على عمود إستر. وقال في ابتسامة ساخرة:

– ستتوقع «كارا» أن نحمل معنا مجموعة من صور شهر العسل.

– إذن لابد من أن نأخذ صورًا معًا، لنسعد «كارا». وبمساعدة أحد السّياح الأمريكيين وقفا جنبًا إلى جنب، وبدأ هو يستعد لالتقاط عدة صور لهما. وقال الأمريكي وهو يداعبهما بلهجته المرحة:

– أعرف أنكم يا معشر اليونانيين تتحفظون أمام الآخرين، ولكن وضع ذراعك حول السيدة سيبدو لطيفًا. ورمق «بول» «دومني» بنظرة متهكمة ثم أحاط خصرها الدقيق بذراعه،وجذبها إلى جانبه. وكانت ابتسامتها أمام آلة التصوير متوترة كجسمها. وشعرت بأصابعه تغوص في خصرها وتؤلمها. ثم انتهى التصوير، وتركها متجهًا إلى السائح الأمريكي الذي قال له:

– ستظهر صور زوجتك رائعة، تمامًا مثل واحدة من بنات الإغريق. وابتسم «بول» للسائح شاكرًا وهو يسترد آلة التصوير، فرّد الأمريكي العفو باللغة اليونانية وهو مغتبط بنفسه لأنه تمكن من معرفة هذا القدر من اللغة اليونانية. ثم ألقى «بول» نظرة إلى ساعة معصمه وقال لزوجته:

– لابد من أنك جائعة، هل نأكل في أحد المطاعم هنا، أم تفضلين أن نعود إلى الفندق؟ وجزعت من فكرة العودة إلى الفندق، ليس بعد! المطعم قد يكون صاخبًا، مكتظًا بالغرباء الذين تستطيع أن تنسى بينهم نفسها ساعة أخرى على الأقل. وقالت بسرعة:

– أحب أن آكل هنا في أحد المطاعم طعاما يونانيًا. وهبطا السلم المغطى بالحشائش، وتنبهت إلى أن الناس ينظرون إليهما. ينظرون إلى اليوناني الطويل الوسيم، وعروسه الإنجليزية. تمامًا كما حدث في «كورنوال» حين ذهبا إلى «لوو» لاسترجاع الشيكات. ولكن في ذلك اليوم شعرت «دومني» بفوران جميل يسري في شرايينها،أما الآن. فالفوران ما زال موجودًا لكنه لم يعد جميلا.

– 5 –

كانا في طريقهما إلى مطعم تقدم فيه اللحوم المشوية إلى جانب السمك، عندما نادى أحدهم «بول»، ووجدا نفسيهما محاطين بعدد من الأشخاص المرحين: زميلان من زملاء «بول»، بصحبة زوجتيهما. وكانتا سيدتين باهرتي الأناقة، ترتديان الملابس الحريرية، وتضعان على رأسيهما قبعتين مزينتين بالورد، وتمسكان بأصابع مكسوة بالقفازات حقيبتين غاليتين، تفحصتا بعيون سوداء ملابس «دومني» العادية، ولاح أنهما

صدمتا لأن زوجة رجل أعمال مهم تبدو في ملابس بسيطة أشبه بملابس السائحات. لكن الزوجين في الجانب الآخر، ابتسما لـ «دومني» في سرور واضح، وألحا على أن تنضم هي و «بول» إلى جماعتهم لتناول طعام الغداء. وأشار «بول» إلى المطعم وراء صاحبه مباشرة وسأله بالإنجليزية لأن «دومني» لم تكن تفهم اللغة اليونانية جيدًا بعد:

- هل تنوي تناول الغداء هنا يا «كوستس»؟ وأجاب «كوستس» في الحال بإنجليزية ذات لكنة، إن هذا المكان مشهور بتقديم الأطعمة اليونانية، وأنهم سيتناولون فيه غداءهم. وأومأ إلى زوجته مؤكدًا انتصار رغبته، ذلك أنها كانت تتمنى الذهاب إلى مكان أكثر فخامة. والطعام فيه أجمل منظرًا، مع أنه بلا نكهة.وقالت «انجيليكا» لـ «دومني» وهما تتبعان الرجال داخل المطعم:

- استغرق «كوستس» وقتًا طويلا حتى بات مرموقًا. سنوات طويلة ارتديت بصبر الملابس الرخيصة. والآن إذ أصبحت أملك الملابس الأنيقة التي يسعدني الظهور بها، يأخذني للطعام في مكان شعبي متواضع، تفهمين طبعًا، اليوناني يجب أن يكون السيد. وابتسمت «دومني»، فهمت جيدًا شيئًا واحدًا فقط: أن «بول» يتوقع منها أن تظهر أمام أصحابه العروس المشرقة. وكان من الصعب عليها أن تعترف لنفسها أنها لا تجرؤ على معارضة رغباته. كانت له كبرياؤه. وما هو كبرياؤها بالمقارنة؟ وتتبعته بعينيها. وكان المطعم مكانًا يمكن أن يأسر «دومني» في أي وقت آخر، بصحبة أناس أقل فضولا وصخبًا. المقاعد حول المائدة المتواضعة من الخيزران والجدران بيضاء تتدلى منها آلات الموسيقى الفولكلورية الشبيهة بالقرع العسلي. ومن كل الأرجاء ارتفعت أصوات المناقشات باللغة اليونانية وسط ضباب الشواء. واصطحب

«بول» «دومني» لتختار لنفسها الحساء والخضراوات واللحم. واختارت السيدتان الأخريان عصافير مشوية. وفزعت «دومني» لذلك في سرها. ما كانت لتأكل هذه الطيور الصغيرة لو أن «بول» أمرها بذلك. وهو لم يفعل بطبيعة الحال، ولمحت ابتسامة على شفتيه عندما طلبت شرائح من اللحم المشوي. ورغبت أيضًا ببعض البطاطس المحمرة، وفي الحال طلب «بول» أن تكون طازجة، وعندما عادا إلى المائدة، كان «كوستس» يطلب شرابًا يونانيًا أبيض، وقال «بول» لـ «دومني»:

- لن يعجبك هذا الشراب. وطلب مشروبًا آخر مع السمك المدخن الذي قررا هو و «دومني» أن يتناولاه بدلا من الحساء. وانهمكت «انجيليكا» و «ميرها» في الطعام بشهية، وابتسم «كوستس» وهو يرفع كأسه لـ«دومني» عبر المائدة. وقال كلمة باللغة اليونانية فهمتها في الحال. كانت تعني «كوني سعيدة»، وابتسمت لليوناني اللطيف وتمنت لو لم تنطق عيناها بأن السعادة لم تعد أكثر من مجرد كلمة بالنسبة إليها. ذكرى لحريتها في الاستمتاع بحياتها في سلام في مدينتها «فردان». بحماية عمها الطيب. ثم خفق قلبها بعنف حينما سألتها «انجيليكا» بصوت مرتفع سمعه كل الجالسين حول المائدة عن عدد الأطفال الذين تتمنى أن تُرزق بهم. وحدقت «دومني» إلى صحن مملوء بالزيتون الأسود ذي اللمعة البنفسجية. أطفال من «بول»! واختلست نحوه نظرة جانبية قبل أن تواجه «انجيليكا» بابتسامة. وتمتم بإجابة مبهمة. وتبادلت اليونانيتان ابتسامات التعارف. إذ اعتقدتا أنها خجول لأنها إنجليزية، وسرعان ما حولتا دفة الحديث إلى مسرحيات الموسم. وقالت «ميرها» موجهة كلامها لـ «دومني»:

- يجب أن تقنعي «بول» بأن يأخذك إلى المسرح. وأحذرك لأن المقاعد

من حجارة، ولكنني آخذ معي دائمًا وسادة. في الموسم الفائت شاهدنا مسرحية «اليكترا» وكانت رائعة. وتنفست «دومني» الصعداء إذ استطاعت أن تتفرغ لطعامها وهي تصغي إلى وصف «ميرها» للمسرحية. وبينما كانت تأكل البوظة اللذيذة، لاحظت الابتسامة التي تعلقت بطرف شفتي «بول» وهو جالس يستمتع باحتساء القهوة التركية، وتدخين السيجارة الرفيعة. لعبت دورها بما يرضيه. وارتباكها بشأن الإنجاب، فسر على أنه بسبب الحياء، ودون شك أنه سر أيضًا لتجاهلها نظرات الإعجاب بشعرها الذهبي ولون بشرتها الأبيض،من الرجال الجالسين على موائد قريبة. وعندما انصرف «بول» و «دومني» للعودة إلى فندقهما، كانا يحملان معهما دعوة إلى بيت «ميرها» يوم الجمعة، وأخرى إلى بيت «انجيليكا» مساء الأحد. وقال لها «بول» في المصعد المتجه إلى جناحهما في فندق «هيلينيك»:

– أحبوك! وقال لي «كوستس» أنه لم ير أبدًا من قبل عينين كعينيك في مثل زرقة بحر «اليونان». ورفعت «دومني» هاتين العينين الزرقاوين إلى وجه زوجها الأسمر، وردت بأدب أنها هي أيضًا أحبت أصدقاءه. وفجأة أمسك بها من كتفيها. فجعلها تحس بدفء يديه وعنفهما من خلال قماش البلوزة. وقال:

– لا تتحفظي معي، ناديني بالقرصان اليوناني، اصفعي وجهي. ولكن لا تكوني دائمًا مؤدبة. قالت بجفاء:

– سأتعلم، أمهلني يا «بول»، امنحني وقتا. قال معقبًا:

– الوقت طريقة إلى الهرب. ووصلا إلى باب جناحهما، ودفع المفتاح في القفل بشيء من العنف. وخفق قلبها، إذ أدركت في تلك اللحظة أنه لن يظل بعيدًا عنها مدة طويلة. كانت له رغبات الرجل القوي العاطفي،

وقد تعلمت أنه يمكن أن يكون بلا رحمة. وفي اليوم التالي بدا جناحهما أشبه بمحل أزهار عندما انتشر خبر وجود «بول ستيفانوس» في «أثينا»، وأنه جاء معه بعروس إنجليزية. فاستمر وصول سلال الأزهار، وعلب الفواكه والحلوى. وأيضًا هدايا العرس للسيدة «ستيفانوس» الشابة. ولم تكن «دومني» سوى إنسان؛ لذلك لم تستطع أن تقاوم حب الأزهار، وتذوق الحلوى والفستق والعنب الذهبي ولكنها دُهشت للهدايا الأخرى من زجاجات الشراب، والملاعق الصغيرة الفضية، والأطباق المزخرفة، وشرح لها «بول» تقاليد اليونانيين في الترحيب بضيوفهم بتقديم الحلوى أو المنعشات في الأواني. وابتسمت «دومني» واستدارت في الحال لتدفن وجهها في باقة من زهور البنفسج وقالت:

– أحب البنفسج. وصمت «بول»، واتجه ناحية باب الشرفة ليشعل سيجارًا. واختلست نظرة نحو كتفيه العريضتين، ورأسه الداكن، وأنبأها شعور خفي بأن أزهار البنفسج مهداة منه. وأحسّت بضرورة شكره، لكن الكلمات لم تسعفها. كيف عرف أنها أزهارها المفضلة؟ وهي لم تتحدث معه قط عن مثل هذه الأشياء، وهو لم يرها قط في غابات «فردان» منحنية فوق حوض البنفسج في الربيع لكن من يدري... وفي الليلة السابقة لرحيلهما إلى «أنديلوس» حضرا حفلة راقصة في يخت في ميناء «أثينا». كان المركب الكبير مزينًا بالأنوار الملونة؛ وكانت حلبة الرقص على السطح، تحت النجوم وفرقة موسيقية صغيرة تعزف الألحان. ارتدت «دومني» ذلك المساء ثوبًا من الشيفون اليوناني ذي الزرقة الباهتة المبطن بالحرير. وعقصت شعرها إلى أعلى وعلقت بالشينيون العسلي الناعم أزهار البنفسج الرقيقة. وقبل أن تخرج مع «بول» إلى الحفلة، لف حول ذراعها سوارًا فضيًا ذا مشبك من حجر ثمين نادر لونه

بنفسجي. وتحسست السوار بأصابعها. كانت أشبه بقيد العبودية. أما «بول» فقال:

– ازددت جمالا في «اليونان»، شمسنا غيرت لون بشرتك وجعلتها باللون العسلي، أخبريني، ألا أستحق قبلة على هديتي؟ ورفعت وجهها أشبه بفتاة صغيرة مطيعة، وضحك هو بنعومة وقال مازحًا:

– إنك تخافين اليوناني عندما يقدم الهدايا أليس كذلك؟ ترى ما الذي أخفيه؟ ونظرت في عينيه النحاسيتين، فالعينان كما يقال نافذة القلب. وكان كل ما رأته ابتسامة غامضة، وانعكاس صورتها في مقلتيه، كانت له عينان نفاذتان. ومثل كل شيء آخر فيه، كانتا جميلتين ومتوحشتين. ولو لم يكن الزوج الذي كانت تخافه، لكان حتمًا أن تعجب به في سترة السهرة البيضاء التي ارتداها فوق قميص حريري أبيض مع رباط عنق داكن،هكذا فكرت «دومني»، وهما يخرجان معًا من جناحهما كأي زوجين سعيدين في طريقهما إلى سهرة مرحة. وكانت «دومني» تحب الرقص. تعلمته في المدرسة الداخلية وكانت تخرج بصحبة «باري» للرقص مرات عدة. طرأ «باري» على بالها حينما شعرت بضغط يد «بول» وهما يرقصان في صمت على ظهر اليخت الساحر. كانت تتبادل مع «باري» طوال الوقت الهمسات والضحكات، وهما يرقصان في نادي الشاطئ حيث كانا يلتقيان عندما كانت تتسل من المدرسة بعد الظلام بمساعدة زميلة لها وكان ذلك سرهما الساحر «الرومانتيكي» منذ البداية.

– إنك تجيدين الرقص لم تكن لدي فكرة أنكم تقيمون حفلات كثيرة في «فردان».

– لم تكن لدينا الأموال الكافية لذلك. تعلمت في المدرسة الداخلية.

– ولكنك تبدين معتادة على مراقصة رجل أكثر من مراقصة فتاة. وقد

لاحظت ذلك من قبل. وكانت في لهجته رنّة فضول. وخفق قلبها خفقة لا يستطيع غيره أن يحركها. كأنه تيار كهربائي يسري من كيانه إلى كيانها. وقالت:

– نسيت أن لي ابن عم. فعندما كان «دوغلاس» يعود إلى البيت، كنّا كثيرًا ما نرقص في الصالة على أنغام الغرامفون القديم.

– آه.. «دوغلاس».. أعتقد أنك كنت تهتمين كثيرًا بهذا الشاب. وسكتت الموسيقى، ووضع أحدهم في يدها كأسًا من الشراب اليوناني، و في خلال الساعات التالية رقصت «دومني» مع رجال آخرين، بينما اختفى «بول». وقال لها شاب أمريكي:

– بعض اليونانيين يلعبون الورق في إحدى الحجرات في الداخل. إنهم يحبون لعب الورق. كان ذهنها شاردًا وهي تفكر في ابن عمها. وتتابعت أفكارها:

– هل حقًا يعتقد «بول» أنها تزوجته لاهتمامها بـ «دوغلاس» بأكثر من مجرد علاقة القرابة؟ ياللغرابة. ويا للحذاقة المخيفة من جانبه لظنه أنها لابد من أن تكون رقصت كثيرًا مع رجل كانت تهتم به! كانت تهتم به! هل يعني ذلك أن حب «باري» لم يترك قلبها قط ؟ ياله من حب يائس وهي التي لم تكن لديها أية فكرة عن مكانه لكنها تدرك أنهما لو التقيا من جديد، فلابد من أن يكونا كغريبين لأنها لم تعد «دومني دان».

– وضاقت «دومني» بالرقص ولمحت سلمًا ضيقًا، سلكته لتجد نفسها فوق سطح آخر لليخت. وقفت وحيدة أمام السور. وداعبت نسمة شعرها ووجنتيها. وانعكس ضوء القمر فوق سطح البحر، وألقى ظلاله على ساريات المراكب الأخرى الراسية. وقلوعها وأحست أن في صوت هدير

المياه حزنًا له صدى في أعماقها. ورفعت عينيها نحو النجوم. وتساءلت عن مستقبلها مع «بول» وارتجفت عندما لمحت نيزكًا يفر في الفضاء. بينما ارتفع في هذه اللحظة صوت عميق يقول:

– تبدين بعيدة مثل هذه النجوم يا «دومني». أقبل «بول» في خطواته الصامتة، ووقف وراءها ولم تلتفت «دومني» وأحسّت بأنفاسه تداعب شعرها، بينما استقرت يداه في قوة ودفء على كتفيها. وظلت في مكانها بلا حراك، قلبها فقط ينبض وشفتها السفلى تهتز في عصبية. وهمس «بول»:

– إنك تحبين الاستمتاع بالوحدة بين الحين والآخر. أليس كذلك؟ وأومأت برأسها. فعاد يقول بصوت هادئ:

– ستحبين الجزيرة يا «دومني»، إنها مكان لمن يعشقون الحرية والطبيعة البكر. أصغي إلى البحر، إنه يترنم بأغنية عذبة. وسألته:

– هل تسمع البحر من بيتك؟

– من بيتنا يا «دومني». ورفع يديه عنها، واستند إلى سور السطح وعندما نظرت إليه كانت عيناه تبرقان وتتحركان كعيني قطة في الليل. وكان شعره مجعدًا. كان يشرب ويلعب الورق. وأحست بتقلص عصبي في حلقها لما لمحته فيه من الاستهتار. وقال بسخرية:

– لماذا تخافين مني يا صغيرتي إلى هذا الحد؟ أجابته:

– أليس من الطبيعي أن نخاف ما لا نفهم؟ وأفتر ثغره عن ابتسامة وهو يقول:

– صحيح أننا معشر اليونانيين لا يسهل فهمنا أبدًا. أغلب ما نحسّ به غامض. لكنه في أي حال إما النار في البركان أو الجليد تحت البحر ولكن الشيء نفسه يمكن أن يقال عن الإنجليز. أنت يا «دومني» وأنت

واقفة هنا هل تعتقدين أني لا أجدك لغزًا؟ «دومني» الفتاة ذات الاسم النادر الجميل الذي يناسب شخصيتها. «دومني»... التي ستحصل على انتقامها عندما أبرهن لها أني شيطان إذ سوف آخذ منها بالقوة ما لن تعطيني إياه! ورفع رأسه إلى الوراء، وضحك في وجه القمر. وهمّت بأن تبتعد عنه، ولكنه بسرعة ودهاء مثل النمر، قيد معصميها بيد واحدة، ورفع وجهها باليد الأخرى، وقال وعيناه تشعان بريقًا ذهبيًا:

– يا زوجتي الصغيرة، أجل، سأحصل على ما أريد وهرولت بعيدًا عنه. وهبطت السلم لتعود وسط الساهرين. جلسا في العربة التي أقلتهما إلى الفندق متباعدين. لم تنظر إليه في المصعد. وهي واقفة ببرود في ثوبها اليوناني. وقد تجمدت عيناها كحجر الفيروز في يدها اليسري. تبادلا في غرفة الاستقبال تحية المساء، ثم دخلت «دومني» غرفتها، وأغلقت الباب بصوت مسموع. وهمت بأن تغلقه بالمفتاح، لكنها تراجعت. فإغلاق الباب سيكون إعلانًا صريحًا عن الخوف الذي في قلبها وهي لا تريد أن تمنح «بول» هذه السعادة. كان ذهن «دومني» مشغولاً، فاستسلمت لنوم قلق مليء بالأحلام المضطربة غير أنها لم تستطع أن تتبين ما دارت حوله أحلامها، ونهضت فجأة لتجد وجهها غارقًا في الدموع وجلست في سريرها تتحسس دموعها. حينئذ لمحت من خلال نوافذ حجرة نومها ألسنة لهب أحمر ترتفع وتسارعت خفقات قلبها، ، ورفعت الأغطية عنها، وهرولت لترى مصدر هذا اللهب. وفتحت باب الشرفة، ووقفت في الخارج بقميص نومها، تحدق إلى اتجاه مصدر اللهب. كانت منبعثة من الميناء. وسمعت أصوات نفير عربات الإطفاء لكنها لم تتنبه إلى صوت بابها وهو يفتح ليأتي «بول» ويلحق بها إلى الشرفة. وسألته في قلق:

– هل يمكن أن تكون النار مشتعلة في يخت «الساحرة الفضية»؟ ياللخسارة إذا كانت هي!! إنه مركب جميل أرجو أن يكون أصحابك قد خرجوا بأمان. واقترب من سور الشرفة، وأطال النظر ناحية الميناء، كما لو كان يقدر مكان وجود يخت أصحابه بالضبط. وصاح:

– كلا. إنها ليست «الساحرة الفضية» فهي راسية في مكان أبعد. اللهب شديد جدًا فالأغلب أن تكون هذه سفينة شحن. كانت ألسنة اللهب تلقي ظلالها الحمراء عليهما وبدا وهو مقبل على «دومني» في بيجامته السوداء الحريرية. بقامته الطويلة أشبه بالشيطان وتمتم شيئًا باليونانية، حينما كانت هي تتراجع في اتجاه غرفتها وألقت صرخة صغيرة عندما تبعها، وأغلق باب الشرفة وقالت وهي كارهة لرجفة صوتها:

– أنا.. أنا.. سعيدة لأن النار ليست في «الساحرة الفضية». ولم يرد. وأرغمت نفسها على أن تنظر إليه. واقفًا يتأملها في قميص نومها فجعلتها نظراته تحس كما لو كانت عارية وقال:

– اتهمتني ذات مرة أنني أشتريتك يا «دومني». هل تعتقدين ذلك حقًا؟ وابتلعت ريقها بصعوبة. وأحسّت اضطراب قلبها. وقالت بانفعال كأن شيطانًا يدفعها إلى ذلك:

– هل تعتقد يا «بول» أن هذا هو الوقت لتجمع الفوائد عن تمزيقك تلك الشيكات؟ فالتقط أنفاسه، ثم تحرك خطوة مقتربًا وأطلق ضحكة متوحشة وقال:

– نعم يا عزيزتي، الوقت حان لأن تكفي عن لعب دور الزهرة المنكمشة. ضقت ذرعًا بذلك، خاصة وأنا أعلم أن لجمالك البارد وكبريائك وجهًا آخر. وصاحت على الرغم من الذعر المستبد بها:

– تريد أن تذل كبريائي، أليس هذا صحيحًا يا «بول»؟ وتسمّرت في

مكانها، وبحركة سريعة خاطفة ماكرة، أخذها بين ذراعيه وقاومت بعنف لتتخلص منه وانطلقت تردد:

– دعني يا «بول». ووصلت أصابعها إلى مكان الندبة وإلى شعره المجعد وعادت تقول:

–لا تحاول أن تجعلني أكرهك بشدة. قال ونظرة تملك في عينيه:

– ألم تكرهيني منذ البداية يا زوجتي الصغيرة؟ وحملها بين ذراعيه وأغلق الباب خلفهما. كانت كتفاه العريضتان أشبه بجناحين يحتويانها وهو يضعها فوق السرير. واستيقظت «دومني» قبيل الفجر وبحرص شديد انسحبت وفزعت عندما تمتم شيئًا في نومه، واهتز قليلا، لكنه عاد فاستغرق في النوم، وابتعدت «دومني» كما لو كانت تهرب من نمر. وعندما وصلت إلى غرفتها وضعت إزارها فوق كتفيها، وجلست بجانب النافذة. تراقب أصابع الفجر الوردية. كان المنظر رائعًا لكنها شاهدته بحسرة.

– 6 –

لم تنس «دومني» قط لحظة وقع بصرها على «أنديلوس»، التي كانا في طريقهما إليها في مركب «بول»، مع بحار شاب من سكان الجزيرة يمسك بدفة القيادة، وآخر يقوم على خدمتها. ظهرت الجزيرة فجأة وسط البحر الأيوني الأزرق. واضحة تمامًا وسط أضواء بلاد «اليونان» الصافية. وأمسكت «دومني» السور بيديها حيث وقفت. كانت «أنديلوس» محتلة في الماضي من الإيطاليين والرومان. وكان اليونانيان يتحركان بسرعة لتنفيذ أوامر «بول». ولاشك في أن كل سكان الجزيرة يحترمونه، بل

ويحبونه لأنه بنى لهم مستشفى، ومدرسة لأبنائهم فيها حمام سباحة وملعب ومكتبة. ولم يكن «بول» هو الذي أخبرها بذلك لكن «انجيليكا» و «ميرها» كانتا مصدر هذه المعلومات. ووقف «بول» بجانبها متكئًا على السور، قميصه الأبيض مفتوح، ونظارة الشمس تخفي عينيه، وشعره الأسود ازدادت تجعداته بتأثير هواء البحر لكن «دومني» كانت تشعر بهزة في أعصابها فما تزال تحت تأثير ما حدث منذ ثلاث ليال. ففي أثناء تلك الأيام في البحر، احتاجت لكل شجاعتها لتتعامل معه بصورة طبيعية. وقال «بول»:

– إننا نقترب من الجزيرة. هل أنت مشتاقة لرؤية بيتك الجديد؟ كان يعرف جيدًا ما في قلبها. إنه الشوق للحرية شوق طيور البحر وهي تنطلق مع الرياح. وأجابت:

– أتخيل بيتك فوق قمة «صخرة النسر» بيتا ذا شأن. هل عاشت فيه أسرتك منذ سنين عديدة؟ ونفث «بول» دخان سيجاره وقال:

– بناه جدي. هو وأخوه «لوكاس» مؤسسا شركة خطوط «ستيفانوس» للملاحة. و في أثناء حركة التمرد تعرض العمل لهزات خطيرة، شأن كل شيء في «اليونان»، لكننا بمرور الوقت تغلبنا على العقبات، وسارت الأمور على ما يرام. وظل صامتًا دقيقة أو أكثر، وبطرف عينيها لمحته يتطلع نحو الجزيرة المقتربة عابسًا. ثم استطرد:

– البيت الذي سآخذك إليه، ليست له جذور عميقة في الماضي مثل «فردان». ولكن يمكنك أن تقولي عنه إنه الرمز الشامخ للانتصار على الطبيعة الوعرة. إن أرض «اليونان» غالبًا ما تكون قاحلة، والحياة صعبة بالنسبة إلى الكثيرين من أبناء وطني. قالت لمجرد الثرثرة:

– ولكن عشيرة «ستيفانوس» حققت النصر. وأحست بنظرته الفولاذية

وهو يقول:

– حققناه بالعمل الجاد. لم يحدث أن تورط أحدنا في السرقة. وبنغمة ذات مغزى قالت وهي تشعر بشيء من الزهو لقدرتها على أن تلقي سهامها مثله:

– لا أحد أبدًا يا «بول»؟ وتأملت أمواج المحيط المتلاطمة بلا نهاية، تحت أشعة الشمس الذهبية كأنها الألم والفرح ترتفع ثم تهوي لتبدأ من جديد. وهمس زوجها بجانبها:

– البحر يحوي كل شيء. الحياة نفسها. تجمع الصخب والحيوية والسلام. قالت معقبة:

– البحر قاس، إنه يأخذ مثلما يعطي. وألقى ببقايا السيجار في البحر وقال:

– القسوة موجودة في كل شيء. حتى في الفرح. وعلينا أن نتقبل ذلك. وعاد يقول:

– أعرف أنه من العسير عليك يا أسيرتي الحالمة أن تواجهي حقيقة أن الساعات التي أمضيتها معي تلك الليلة لم تكن بغيضة تمامًا. حاولت التخلص منه وهي تقول:

– دعنا لا نتكلم في هذا الأمر. لكنه تمسك بأسرها وقال وهو يهزها:

– أنا ألح على سماع ردك. ورفعت رأسها وواجهته بعينين تشعان بريقًا أزرق وقالت:

– هذه الساعات، كانت كما أردتها أنت. أجل يا «بول». ولكن قلبي ملكي. قال وعيناه في عينيها:

– لعلك تعتقدين أن زواجنا علاقة مستبدة، حسنًا، دعيني أخبرك يا «دومني» بأنك إذا عشت مع رجل تحبينه، فستكتشفين أن هناك وقتًا

للصراع، ووقتًا للتقارب ووقتًا للتباعد. الحب والكراهية ليسا غريبين أحدهما عن الآخر، إن البسالة وكبح الجماح لا وجود لهما إلا في الكتب الخيالية قالت:

– أنا أتوقع البسالة يا «بول»، إنه خيال المراهقة بعينها. لقد لقيت منك كل ما توقعت عندما أقسمت على طاعتك. قال بلهجة تحذير:

– وتذكري أن الشرف كان ضمن ما أقسمت عليه. قالت والرياح تداعب خصلات شعرها، وقد امتلأت عيناها بزرقة سماء «اليونان» ومحيطها:

– من المؤسف أنك أنت لم تتذكر ذلك يا «بول». واهتز ركن فم «بول» بعصبية وهو يحدق إليها. وتحركت عيناه فوق بلوزتها المطرزة المستوردة من جزيرة «كريت»، والتي كانت الرياح تداعبها وكان شعرها المتطاير يحيط بوجهها، ويضفي على وجنتيها ضياء ورديًا. وقال «بول» بتهكم:

– أهل «أنديلوس» سيظنون أني أسعد رجل على الأرض. قالت بسرعة:

– أتمنى لو كنت امرأة عادية. وأطلق ضحكة عميقة وقال:

– تتمنين ذلك حقًا؟ سواء أكنت عادية، أم جميلة، كنت ستظلين «دومني». وكانت تسمعه، لكن اهتمامها كله كان مركزًا في الحركة التي لاحظتها بجانب المركب. وقالت مشيرة نحو حركة المياه:

– هل يوجد سمك القرش في مياه «اليونان»؟ وانحنى ليتابع الحركات التي كانت تموج ثم تدور وتقفز وذراعه ملتف حول خصرها.

– إنه درفيل. للمرة الأولى ترى درفيلا. أبهجها ذلك، واستدارت وابتسمت لـ «بول» في إشراق. قال «بول»:

– أسماك الدرفيل تأتي إلى ساحلنا وستنعمين بمتعة مراقبتها في أثناء

إقامتك في البيت القائم على «ربوة النسر». وضحكت لمنظر تحركات الدرفيل في البحر، ثم سألت:

– ألن نقيم باستمرار هناك؟

– ليس دائمًا.

– أعتقد أن الأعمال تحتم عليك السفر.

– أجل، سأقوم برحلة بعد أشهر قليلة. وكان اهتمامها كله موجهًا إلى الدرفيل لكن شيئًا ما في لهجته جعلها تنظر إليه، ولم يكن من المستطاع قراءة عينيه، لأنهما كانتا خلف نظارة الشمس لكنها تساءلت عمّا إذا كان يعتبرها مجرد نزوة، وفي الوقت المناسب سيتركها تذهب وأحست بشيء ما يغوص في قلبها. هل هي ملكه فقط مادام ذلك يروق له؟ تمامًا كما كان يمسك بها في تلك اللحظة بذراع قوية وأصابع صلبة تقيّد معصمها. واجتاز مركبهما ميناء «أنديلوس»، لأنهما كانا متجهين إلى المرفأ الخاص داخل ممتلكات «بول» لكن «دومني» استطاعت أن ترى في الميناء مراكب الصيد الملونة والمنازل البيضاء ووصل إلى مسامعها صوت صياد شاب يغني، وظل صوته يلاحقهما حتى ابتعدا... وفي اهتمام سألت:

– ماذا تعني كلمات هذه الأغنية؟ ورَد «بول» ورنة سرور في صوته:

– إنه يغني لحبيبته التي يتمنى أن يتزوجها عندما تستقر أحوال أخواته.. ليست أغنية عاطفية على النحو الذي توقعته. أليس كذلك؟ ولكن هذا هو التقليد في «اليونان». إذا كان الابن هو العائل الأساسي للأسرة فيجب أن يساعدها حتى تتزوج أخواته. وهمست «دومني»:

– كم هو صعب على الشاب المسكين. لا غرابة أن صوته يبدو حزينًا. قال «بول» بجفاء:

www.rewity.com

- آه، لكن فتاته تحبه، وهو يعرف أنها ستنتظره، وأن قلبها سيختزن الحب. واهتزت «دومني» لجمال الكلمات. لكن هل يزيد دائمًا الانتظار حلاوة الحب؟ إن هذه الفكرة تعبر بكل تأكيد عن العاطفية. ومع ذلك زعم «بول» أنه لا يؤمن بالحب! وكان المرفأ محاطًا بصخور قاتمة. والمياه الزرقاء تنساب إليه في رقة وتتكسر عند القناة الضيقة. وفكرت «دومني» في الجو العاصف، وكيف أنه لابد من أن تبدو المياه وكأنها تغلي بين الصخور في هذا المر الضيق فتصعب الملاحة. ومن الشاطئ رأت أبراج الصخور ترتفع نحو السماء، والطيور تبني أعشاشها فيها وتطير بينها وأعشاب البحر المزهرة تكسوها. ورسوا بجانب صخرة كبيرة، ولاحظت «دومني» أن الشاطئ يتكون من مجموعة صخور، تفصلها المياه. والحشائش تتلوى فوق الرمال الشاحبة كالثعابين. وتعلو بجانبها بعض الشجيرات الصغيرة التي تحميها من الشمس المحرقة. ووقفت «دومني» تتلفت حولها، وتتساءل عن كيفية الوصول إلى البيت من الشاطئ ولم تلبث أن اكتشفت الطريقة، فقد أقبل أحدهم يحمل بطارية كهربائية كبيرة، ناولها لـ «بول» وهو يبتسم. وتكلم معه «بول» باللغة اليونانية، مشيرًا إلى المركب، ومعطيًا أوامره بالنسبة إلى الحقائب. ثم قاد «دومني» عبر فتحة كهف واسع. وقال لـ «دومني»:

- منذ زمن بعيد كان هنا مخبأ للمهربين. إنه يوصل مباشرة إلى البيت. وهو آمن تمامًا. إن حركة المد والجزر بطيئة هنا، ولا تشتد إلا عندما يكون الطقس سيئًا. ومن الحكمة حينئذ الابتعاد عن الشاطئ. وضحكت «دومني» قائلة:

- يا لها من طريقة مبتكرة لوصول عروس إلى بيتها. لكنها تناسب شخصية القرصان فيك. وتردد صدى كلامها في الكهف. ونظرت

«دومني» إليه وهما يعبران المر الصخري، رجل غريب، متقلب، يضحك مثل صبي صغير. وقال:

- الأرض ترتفع، هل تحسين بها؟ سنصل حالا إلى باب يفتح على السلم الذي يقود إلى الحديقة، هذا المر السري يعجبك أليس كذلك؟

ووافقته بابتسامة قائلة:

- أجل، تعرف أنني خيالية. قال باعتداد وبلهجته الخاصة:

- هذا شأن الإنجليز. وبعد دقائق أضاءت البطارية بابًا خشبيًا، يفتح على سلم حجري، وقال «بول» محذرًا:

- من فضلك، كوني حذرة، السلالم متآكلة بفعل السنين، والآن احترسي. وأمسك بها عندما أوشكت أن تفقد توازنها، ولمدة لحظة، في الضوء الخافت، التصقت به واحتبست أنفاسها واعتقدت أنه سيعانقها، لكنه أخلى سبيلها، وتابعت صعود السلم، محاولة ألا تبدو متعجلة، وتبعها في صمت حتى وصلا إلى الخارج، حيث يوجد ممر يخترق حديقة تعلوها شرفات فسيحة، وكانت أشجار السرو تملأ المكان بألوانها الخضراء والذهبية، وأشجار الفلفل مليئة بالعصافير المغردة. وقال «بول» وهو ينحني ليجمع باقة من الياسمين ذي الرائحة العطرة ويضعها في شعر «دومني»:

- في الجانب الآخر من البيت غابة صنوبر. وتدلى الياسمين من شعر «دومني» وأحاط بوجهها، وملأ برائحته أنفها، لكن ما معنى أن يتوجها بورد الحب في تلك الحديقة التي بدت معلقة فوق البحر، كأنه يريد أن يقول لها دون كلمات، إنها في تلك الليلة ستكون لأول مرة وحدها معه في بيته. كان البيت فوق قمة الصخرة، معزولا عن العالم، وكان يبدو غامضًا في عيني الفتاة التي جاءت إليه عروسًا. كانت جدرانه ذهبية،

مع وجود سلالم تقود إلى شرفة واسعة رصّت حولها المقاعد والأرائك والموائد، وعدد هائل من الأواني تنبت فيها أنواع مختلفة من النباتات. ومن فوق السور لم تر «دومني» سوى هوة سحيقة عميقة يليها البحر والصخور. وتراجعت لاهثة بعض الشيء، ثم استدارت لتواجه «بول» وهو يقول وقد مدّ يده السمراء إليها:

– تعالي... دعيني أريك البيت. وذهبت معه، وما زالت متوترة من منظر الهوة، ودخلت البيت ويدها في يده من خلال باب زجاجي، وقال وهو يشير إلى اتجاه الغرفة الكبيرة بمقاعدها الوثيرة، ومراياها الأثرية القديمة قال:

– هذه هي غرفة الاستقبال. ثم استدار ناحية المدفأة الحجرية وسألها:

– هل أعجبتك؟ الليل هنا بارد والإنجليز يحبون النار في المدفأة أليس كذلك؟ ورمته بنظرة طويلة، فجأة بدا لها أكثر غرابة من أي وقت مضى وأومأت برأسها بسرعة ردًا على سؤاله، ثم أدارت بصرها بعيدًا عنه، إلى الجانب الآخر، حيث رأت سلمًا خشبيًا نصف دائري يقود إلى منصة يرتكز فوقها بيانو، كان سواده لامعًا، وكان يبدو رائعًا ورقت نظرات «دومني» كان البيانو من وسائلها الترفيهية المفضلة، ورغم أنها لم تدرس العزف، إلا أنها كانت ذات أذن موسيقية، وكان عمها يحب أن تعزف له على البيانو القديم في «فردان». وهمس «بول»:

– هل أعجبك يا «دومني»؟ وأومأت، ورغبت في الجلوس أمامه، وأن ترفع عنه الغطاء اللامع الذي يحجب عالمًا كانت تستطيع دائمًا أن تنسى فيه نفسها. وقال «بول»:

– إنه لك. واستدارت تنظر إليه بعينين مرتابتين وهي تقول:

– لي أنا؟ ابتسم قائلا:

– جيء به من «أثينا» منذ ثلاثة أسابيع، أما هذه المنصة فكانت لاستعمال جدّي الخاص. حيث كان يوجد مكتبه المهيب. وفي الواقع فإن هذه الغرفة كانت مكتبًا. وهذه القطع من الأثاث جمعتها من أركان غريبة في البيت وأمرت بتنظيفها ونُظفت حتى استعادت لمعانها، وهذه البُسُط من جلود الدببة كانت في غرفة المخلفات أيام زوجة أبي... آه... ولكنك لا تهتمين بهذا كله! ولمست معصمه بحياء حيث الشعر الذي يحيط بالساعة، وقالت:

– بالعكس يا «بول»، هذه الغرفة رائعة، ولكن أخبرني، ما هذه الكلمات المحفورة على حجر المدفأة؟ وسار نحو المدفأة، وتبعته، ولاحظته وهو يمر على الحروف اليونانية بأصبعه قائلا بصوت خافت خالٍ من التعبير:

– هذه الكلمات تقول: «تحدوا قوى الظلام مثل «أبوللو»». همست وهي تفكر في عجز «بول» عن مواجهة الضوء الشديد، أو أشعة شمس «اليونان» التي يحبها:

– «أبوللو» كان رمز الضوء. وتذكرت أنهما استمتعا مرات عديدة بحمامات الشمس على شاطئ يبعد عدة كيلومترات عن «أثينا»، حيث يدفن وجهه في الرمال، ويترك بقية جسمه للشمس التي توجه الطعنات لعينيه ما لم يحمهما خلف النظارة وأحست «دومني» أن لذلك علاقة بالضوء الذي تعرض له، والذي نتجت عنه تلك الندبة المخيفة فوق عينه اليمنى، وسألته:

– متى سأرى أختك غير الشقيقة؟ وكانت قد فهمت من أحاديثه أنه يحب هذه الأخت كثيرًا، لكنه لم يكن على وفاق مع أمها، وكانت

أمه قد ماتت وهو في الرابعة من عمره، وأخوه مازال طفلا، وتزوج والده بعد ذلك بسنوات، كانت «كارا» ثمرة هذا الزوج غير السعيد. وقد مات والد «بول» فجأة أثر أزمة قلبية، بينما كان يقود يخته في البحر الأيوني، وكانت زوجته معه فغرقت عندما فقد اليخت توازنه وهو تحت قيادة رجل فارقته الحياة. وكانت «كارا» تعيش مع عمة «بول»، لأن مسؤوليات العمل كانت تبعده كثيرًا عن «أنديلوس»، وخططت «دومني» لأن تستضيف الفتاة في خلال عطلات نهاية الأسبوع، لقد أحست غريزيًا بأنهما ستكونان صديقتين. وقال «بول»:

– سنذهب غدًا لنرى «كارا» والعمة «صوفيولا»، والآن لنكمل جولتنا في بيتك الجديد يا سيدة «ستيفانوس».

بيتها الجديد! كان مليئًا بالمرات، والأبواب غير المتوقعة. والأثاث الداكن، والبُسُط اليونانية المصنوعة يدويًا، وأخيرًا الغرفة التي كانت ستنام فيها. الغرفة المجاورة مباشرة كانت غرفة «بول»، وقد استقرت حقائب كل منهما في حجرته، وذهب هو ليأخذ حقيبته الصغيرة الخاصة، وظهر من جديد قائلا إنه سيهبط إلى الطابق السفلي ليعمل ساعة أو ساعتين. ووقفت تختبر بأصابعها المشاعل الإيطالية الجميلة الموضوعة على تسريحتها. ثم قالت:

– شكرًا يا «بول» على البيانو.وعكست لها المرآة صورته، كان طويلا فارغًا، وكان رأسها بمحاذاة قلبه، وجذبها نحوه وهو يطوق خصرها، وهمس في طيات شعرها الناعم حيث كانت باقة الياسمين مازالت معلقة وقد انتشر شذاها:

– الآن يا «دومني» تبدأ حياتنا معًا بالفعل. والتقت نظراتهما في المرآة، ودبّ الاضطراب القديم في أعماق «دومني» عندما لمحت نظرة الرغبة في

عينيه النحاسيتين. ثم دار في غرفتها وسألها:

– هل أعجبك مخدعك؟ قالت وهي ترتعش:

– إنه جميل جدًا.

وأغلق الباب خلفه، وببطء فارقها التوتر الذي كان يستبد بها كلما لمسها، ونزعت الياسمين من شعرها، وخبأته في أحد أدراج التسريحة، ثم تناولت فرشاة شعرها، وكان شخص ما قد أفرغ حقائبها، وأخذت تمشط الخصلات لتخلصها من بقايا الياسمين. وسمعت طرقًا على الباب، ودارت في ارتباك، وهي عاجزة عن التفكير في الكلمة اليونانية التي تعني ادخل وأخيرًا قالتها بالإنجليزية، ودخلت «ليتا»، تبتسم بطريقتها الجادة، وتمنت أن تعرف الذي مازال غريبًا عليها، وقالت:

– شكرًا يا «ليتا».

– إنني تحت أمرك حتى تختاري وصيفة يا سيدتي. وعدلت «ليتا» غطاء السرير المزدوج، ووضعت قميص نوم «دومني» في مكانه، وقالت «دومني» وهي ترفع شعرها:

– أوه...لا أعتقد أنني أحتاج إلى وصيفة... لقد اعتدت الاعتماد على نفسي، ويبدو لي أمرًا غير مستساغ أن يعتني بي شخص من رأسي إلى قدمي. وبدت «ليتا» مذهولة بعض الشيء لكلام سيدتها الشابة وقالت:

– عليك يا سيدتي أن تجدي في القرية فتاة يعتمد عليها، وهي بدورها ستقدر لك اختيارها لخدمتك، إن بناتنا ينشأن على الطاعة والمساعدة، وسيدة في مثل مركزك يجب أن تكون لها وصيفتها الخاصة. وأغرقت «دومني» في الضحك وقالت:

– حسنًا جدًا، حسنًا جدًا، ولكن إذا كنت حريصة إلى هذا الحد على

أن تكون لي وصيفة، فتولي أنت مهمة البحث عن واحدة. إنكم يا معشر اليونانيين أكثر الناس تصميمًا وعنادًا، ألستم كذلك؟

– نحن كذلك يا سيدتي. وابتسمت «ليتا» من جديد وهي تنحني لتلتقط وريقات الياسمين المتناثرة أمام التسريحة واحدة واحدة، وحملقت «دومني» إلى شعرها الأسود الناعم، وتساءلت عما إذا كانت ستعتاد يومًا طرق اليونانيين في الترتيب، فالحياة في «فردان» كانت سهلة للغاية. وغير معقدة. لم تكن هناك مشكلة خدمة، فقد كانت «دومني» تقوم بمعظم العمل بمعاونة عاملة تأتي يوميًا. وسألت «دومني»:

– هل استمتعت بإجازتك مع «يانيس»؟ وردت «ليتا» برقة:

– قمنا بمساعدة والده في عمله في مزرعته الصغيرة. لقد كان عملا عن حب، وهذه إجازة في حد ذاتها. وظلت «دومني» تفكر في كلام «ليتا» بعد انصرافها، كان حقًا ما قالته إن الإنسان لا يضيق بواجب أو بتضحية، إذا كان العطاء عن حب. وبحماسة اتخذت مظهر الشجاعة، نفذت «دومني» ما اقترحه «بول»، وذهبت للتعرف إلى بيتها الجديد. كان البيت من الداخل غنيًا بأخشاب السرو، وأخشاب الأرز، ولكن الزمن والأيدي تركت بصماتها على كل شيء، فتآكلت أجزاء منها، ومن خلال إحدى النوافذ، رأت بحرًا من شجر الصنوبر وقد غطى الغابة ضباب بنفسجي وكانت للصنوبر رائحة نفاذة امتلأ بها الجو.

وهبطت «دومني» السلم إلى الصالة وهي تشعر بوحدة غريبة في ذلك البيت الكبير المنعزل عن العالم، الذي تحيط به همسات المحيط والصنوبر. وفتحت أبوابًا كثيرة، ونظرت من خلالها إلى الغرف، لكنها كانت حريصة على تجنب الغرفة التي كان يعمل فيها «بول»، وكان قد أراها إياها وهما في طريقهما إلى الطابق العلوي، وكان ذلك سببًا لارتياح

«دومني» إذ عرفت أنه سيقضي جزءًا من كل يوم في هذا المكتب. وفي أثناء انشغاله في عمله، بوسعها أن تكون حرة، حرة في أن تكتشف الجزيرة، وأن تسبح وكانت تعتقد أن ذلك سيساعدها على مواجهة الأمسيات والليالي. وجاء لها «يانيس» بالشاي والحلوى وبعدما تحدثت معه لبضع دقائق، خرجت إلى الشرفة الكبيرة لتشرب الشاي. ومن ذلك المكان كان الأفق يبدو أشبه بقوس فضي يلقي سهامًا من اللهب تحت وهج الشمس الغاربة وكان منظرًا انحبست له أنفاس «دومني» ثم بدأ الظلام يزحف، وعادت إلى الداخل، وصعدت إلى الطابق العلوي لتأخذ حمامًا ولترتدي ملابس العشاء. وكان العشاء يقدم متأخرًا في «اليونان»، لذلك كان لدى «دومني» وقت كافٍ لأن تستحم على مهل، وأن تسترخي في الحوض الكبير الذي يكاد يتسع للسباحة. وكانت غارقة في بهجة حمامها، عندما فوجئت بـ «بول» يهتف لها:

– لا تمضي ليلتك كلها في الحمام يا عزيزتي. فأجابته:

– سأكون معك بعد قليل. وعندما جلسا إلى الطاولة بعد قليل أشاحت عنه بوجهها، وتشاغلت بمشاهدة الأزهار في الزهريات. وقالت هامسة:

– أحب رائحة الأزهار والأخشاب هنا، هذه الغرفة كلها في الواقع جميلة. قال مازحًا وهو ينظر إليها:

– نقطة الضعف فيّ يا «دومني»، أن لي عينًا يونانية في اكتشاف الجمال. سألت في صوت خافت:

– هل هذا هو عذرك الوحيد يا «بول»؟ أجاب وقد فهم مرماها بسرعة:

– ليس تمامًا، لديّ سبب آخر، ولكني لا أنوي أن أخبرك به في هذه المرحلة. وأحسّت بقلبها يكاد يخترق صدرها وهو ينطق بهذه الكلمات،

ما الذي كان يعنيه؟ إنه أرادها زوجة لأنه أحبها.

– 7 –

أيتها الطفلة، هل لك أن تهدئي. توسلت بهذه الكلمات السيدة ذات العينين الحزينتين، التي جلست على مقعد من الخيزران، تشتغل الدانتيلا، كانت ترتدي السواد، من الغطاء الصغير فوق شعرها الرمادي، إلى أطراف الحذاء الضيق في قدميها، وكان الراديو الصغير الموضوع فوق المنضدة المجاورة لا يشير إلى أن سنوات الحداد الثلاث الأولى على زوجها قد مرّت، وأنها تستطيع الآن أن تتمتع ببعض المباهج الخفيفة. وقالت «كارا ستيفانوس» معترضة وهي تقفز:

– ولكنهما يا عمتي «صوفيولا» سيصلان في أية لحظة. ثم تدلت من سور الشرفة الحديدي؛ وبذلك كانت تستطيع أن ترى سيارتهما. وكان وجهها الذي لفحته الشمس منفعل الملامح، وهزت العمة رأسها عندما انصرفت عما كانت تطرزه. كانت على ذراعي «كارا» علامات حمراء، أحدثتها بأظافرها وفكرت العمة في أن «بول» يجب أن يعرض أخته على اختصاصي أعصاب. ومرت «كارا» بجانب مقعد عمتها كالحصان الأسطوري «بيغاسوس» ذي الجناحين، في اتجاه السلم وهي تردد:

– ظهرا... إنهما قادمان. وفتحت بسرعة بابًا صغيرًا يؤدي إلى الطريق، والتمعت عيناها وهي تجري نحو السيارة ذات اللون الكريمي التي وقفت أمام البيت... وصاحت باللغة اليونانية:

– مرحبًا بعودتك يا «بول». وتأملته «دومني» وهو يرفع أخته النحيلة بين ذراعيه، ثم وهما يتعانقان بفرح غريب. واحتضنت الفتاة وجهه بين

يديها السمراوين، وهي تردد اسمه، بينما انهمرت دموعها. وقالت:

– افتقدتك كثيرًا، كيف حالك يا أخي؟

– أنا في أحسن حال أيتها الصغيرة. ثم قال بعد أن أنزلها على قدميها:

– والآن يا سنجابتي. تعالي قابلي زوجتي، «دومني». وفتح باب السيارة، وخرجت «دومني» لتواجه لفحات الشمس الحارة. كانت ترتدي ثوبًا سماوي اللون، ودون أكمام، وكانت تبدو غاية في الرقة والجمال، حتى أن «كارا» لم تملك نفسها من التحديق إليها. وقال «بول» بالإنجليزية:

– قبّلي أختك الجديدة يا «كارا». وتقدمت الفتاة في ارتباك من «دومني»، وقالت وقد احتقن وجهها خجلا من قبلة زوجة أخيها الناعمة على وجنتها السمراء:

– مرحبًا بك في «أنديلوس»، وفي أسرتنا يا «دومني». ثم رجعت لتقف بجانب «بول»، وأطلق ضحكة وهو يحيط خصرها الضئيل بذراعه، وسأل:

– كيف حال الجميع يا «كارا»؟ هل العمة «صوفيولا» بخير؟

– أجل، ولكنها كانت قاسية جدًا معي، تقول إن حالتي العصبية سيئة، وإنها ستطلب منك أن ترسلني إلى اختصاصي أعصاب. صاح:

– يا له من كلام فارغ. ماذا فعلت؟

– أحيانًا أحك جلدي. وحكّت جلدها بالفعل وهي تتكلم، وتركت احتقانًا على ذراعها الأيسر. وعبس «بول» في وجهها، وضربها على يدها، ثم استدار وقال لـ «دومني» بجفاء:

– «كارا» ليست في الحقيقة قردة يا عزيزتي ولكنها تقلدها. وأطلقت

«كارا» ضحكة صغيرة تدل على الخجل، ثم جذبت إحدى يدي أخيها، ورفعتها وقبلتها، وبحثت وجهه بعينيها السوداوين السريعتين، وقالت بسذاجة:

– أعتقد يا «بول» أنك سعيد لأنك تزوجت. وأجابها على ذلك بأن قرص مداعبًا أرنبة أنفها وقال:

– ستجعلين دماء الخجل تتدفق إلى وجه «دومني» بملاحظاتك، إنها إنجليزية، يجب أن تتذكري ذلك، ولم تتعود بعد طريقتنا في الكلام.

– ولكنني سعيدة للغاية لأنك تزوجت يا «بول». ثم استدارت وواجهت «دومني» بابتسامتها الساذجة قائلة:

– كنت قد بدأت أعتقد أنه لن يتزوج أبدًا، وليس في صالح الرجل أن يظل بلا زوجة. وأنا سعيدة إلى حد الرغبة في الغناء، لأن أخي الوحيد العزيز اختار لنفسه مثل هذه الزوجة الجميلة.

وتأثرت «دومني» تأثرًا شديدًا، كانت قبل هذه الكلمات البريئة الصادقة الصادرة عن الفتاة، تحسّ بالتواضع. وبدأت تخشى أن تكتشف «كارا»، أن أخاها وزوجته لا يجمعهما الحب كما اعتقدت. وراقبت «بول» مع أخته الصغرى، ولمحت في عينيه بريق الرضا وثلاثتهم يقتربون من دخول البيت، واقترحت «كارا» أن يقبل «بول» «دومني» عند أول درجة في السلم، حتى تدخل بركة حبهما إلى البيت معهما. وكانا قد جاءا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في هذا البيت اليوناني القديم فوق ميناء «أنديلوس»، بدعوة من عمته التي اتصلت به تليفونيًا، وألحت على ذلك، ووقفت العمة في الصالة، ترحب بابن أخيها وعروسه بتقديم العنب المسكّر والماء المثلج كعادة اليونانيين وسألت «كارا» بلهفة إذا كانت تستطيع أن ترشد «دومني» إلى غرفة نومها، فقالت العمة وهي

تضع يدها على كم «بول»:

– أجل، أجل، أيتها الصغيرة القلقة، وتعال أنت يا بن أخي، لنتحدث معًا في الشرفة، عندي ما أريد قوله لك. وقالت «كارا» مقطبة وهي تمسك بيد «دومني»:

– أراهن أن بعض هذا الحديث عني. وصعدا معًا السلم إلى الطابق العلوي، وعبرا قاعة كبيرة، وقالت «كارا» ضاحكة:

– يئست العمة «صوفيولا» من جعلي سيدة مجتمع، لقد فصلوني من مدرستي في «أثينا» منذ بضعة شهور. ورمقتها «دومني» بنظرة جانبية وقالت:

– أوه... لماذا؟

– لأنني عزفت على قيثارتي في مكان عام، مع أنه شيء لطيف ولكن مديرة المدرسة قالت إنها قحّة وجموح... وعندما جاء «بول» ليأخذني، حدثت بينه وبين المديرة مشادّة مخيفة، إن «بول» يعرف أنني لا أقصد أن أكون متوحشة، لست متوحشة حقًا. قالت «دومني»:

– أنت في مرحلة انتقال...

– بالضبط... إنني نصف طفلة... ونصف امرأة، ومتمردة على الاثنتين. آه، لقد عرفت أنك ستقدّرين وستفهمينني. وتلقت يد «دومني» ضغطة منها حين استمرت الفتاة تقول:

– رأيت ذلك في عينيك للوهلة الأولى ، هذه غرفتك وغرفة «بول». وحينما فتحت «كارا» باب الغرفة المزدوجة القديمة، شعرت «دومني» بغصة في حلقها.. كانت حقيبتها قد أحضرت مع حقيبة «بول»، وكانت الوصيفة قد أفرغت محتويات الحقيبتين، ووضعت قميص نومها بجانب بيجامة زوجها. واقتربت «كارا» من السرير الكبير وقفزت جالسة فوقه

وقالت:

- أجل، سيشعر كلاكما بالراحة في هذا السرير. ثم لمست قميص نوم «دومني» بأصابع خجلة، وسألت:

- ألا تشعرين في نسيج العنكبوت هذا بالبرد؟ آه، ولكن، كلا بالطبع. وأطلقت ضحكة، وحدقت بمرح ساذج إلى «دومني» وقالت:

- ربما يكون من الرائع أن تكوني امرأة، أم لا؟

- هذا وضع له ضحكاته، وله أيضًا دموعه. وألقت «دومني» إلى «كارا» رزمة صغيرة أخرجتها من حقيبة يدها، فهمست «كارا»:

- والآن، ما هذه؟ وفي ابتسامة لطيفة طلبت منها «دومني» أن تفتح الرزمة وأن ترى ما فيها، وفعلت «كارا» ذلك بأصابع منفعلة، وحبست أنفاسها وهي ترفع غطاء العلبة المربعة ،وتكشف عن علبة بودرة رقيقة، وأحمر شفاه، ونظرت «كارا» بوجهها الأسمر في مرآة العلبة، وقالت باللغة اليونانية:

- أتمنى لو كنت جميلة يا «دومني» لتناسبني هديتك، شكرًا كثيرًا. وداعبت «كارا» العلبة بأصابعها، ثم عادت تقول:

- ما هو شعور المرأة عندما تكون جميلة، جميلة حقًا، مثلك؟ وتلاشت ابتسامة «دومني» وهي تنظر إلى أخت «بول» مصدومة، فالحقيقة مرّة، لم تكن لتستطيع أن تجيب قائلة: «لقد تعلّمت أن الجمال فخ، إنني اكرهه لأنه جعلني ملكًا لأخيك، ولأنني مجرد متاع له، فإنني مدفوعة إلى إيذائه، لا أستطيع أن أكفّ عن إيذائه، لقد أصبحت قاسية وضئيلة، لأن لي هذا الوجه، وهذا الجسم». وقالت بجدية:

- الجمال في الأعماق.

- تعنين أنك يمكن ألا تكوني جميلة في أعماقك؟ وكانت نظرة «كارا»

نفّاذة، هي الصغيرة في بعض تصرفاتها، كانت أكبر في البعض الآخر، ووقفت «دومني» عند طرف السرير مشدودة خشية أن تكون «كارا» قد شعرت بعدم حبها لـ «بول». وقالت «كارا»:

- كتب لي «بول» يقول إنك تشبهين لوحة «ميديتشي» واعتقدت أنه لابد من أن يكون مبالغًا. وسألت «دومني» متلعثمة:

- ما... ماذا؟

- لوحة «ميديتشي» والآن أرى أنه لم يكن مبالغًا، إن لك الملامح الرومانية النبيلة نفسها وأنا أتوقع أن يرغب «باري سوتيرن»في رسمك، إن «باري» يعيش في كوخ على الشاطئ وعمتي تدعوه النصّاب، ولكنه في أي حال موهوب وهو أيضًا إنجليزي، مثلك يا «دومني». وشحب وجه «دومني» وفكرت في نفسها: هل كان «باري» هنا... هنا في «اليونان»، وكان يعيش في كوخ في جزيرة «أنديلوس» وترنحت، وقفزت «كارا» من السرير، واقتربت بسرعة منها، ووضعت ذراعًا حولها وهي تقول:

- ماذا بك؟ هل تشعرين بالغثيان؟ وتماسكت «دومني» وقالت برجفة:

- من المحتمل أن يكون ذلك بسبب الحرارة، أنا... أنا لم أتعود بعد شمسكم. ونظرت «كارا» إلى وجه «دومني» الشاحب بقلق وقالت:

- ستشعرين بتحسن عندما تشربين فنجان شاي، هل أحضر الشاي هنا، أم تفضلين اللحاق بالآخرين في الشرفة؟

- دعينا نذهب إلى الشرفة. أحست «دومني» بالحاجة إلى الهواء بعد الصدمة لمعرفتها أن «بول»- دون الناس أجمعين- أحضرها إلى المكان الموجود فيه «باري». لقد كان ذلك قدرًا، فكرت في ذلك وهي تتجه ناحية المرآة لتمشط شعرها وحملقت إلى عينيها الواسعتين، ورأت أنها خائفة، مثلما هي متلهفة لرؤية «باري». كانت خائفة من «بول»، الذي

ذكرها في اليوم السابق فقط. إن الشرف ضمن ما أقسمت عليه عندما أصبحت زوجته. بينما تضع أحمر الشفاه الوردي على شفتيها، دخل «بول» الغرفة، ويده في جيب البنطلون الخفيف الذي كان يرتديه مع قميص سبور في لون الرمل، وسأل:

– ألا تريدان أيتها الفتاتان أية منعشات؟ الشاي يقدم الآن في الشرفة.

وقالت «دومني»:

– إنني أرتب ملابسي يا «بول». وتمنت ألا تخبره أخته بما اعتراها من ضعف منذ لحظة، وراقبته في المرآة عندما انحنى فوق «كارا»، وأخذ وجهها بين يديه.. وسأل مبتسمًا:

– لماذا هذا التعبير الشارد يا صغيرتي؟ اعتقدت أنك سررت لرؤية أخيك. كنت غاية في السخاء بقبلاتك عندما التقينا أمام باب البيت.

ونظرت «كارا» إليه، ورفعت يدها إلى شعره، وإلى الندبة. وكلّمته باللغة اليونانية، وتأكدت «دومني» التي بدأت تفهم قليلا أن «كارا» تذكر شيئا عن أزمات الصداع التي تنتابه. ولم تفهم إجابته، ولكن نغمة صوته كانت رقيقة، وأضاف بالإنجليزية:

– حسنًا يا «كارا»، ماذا كان رأيك في الهدية التي أرسلتها إليك من «أثينا»؟ وأشرق وجه الفتاة، وكانت «دومني» قد عرفت من «بول» أن أخته مولعة بالموسيقى الشعبية. وكانت تجمع الأغاني القديمة كما تجمع الفتيات الأخريات الدمى، وكانت تعزف على عدة آلات موسيقية، وقد عثر «بول» في أحد محلات «بلاكا» على آلة ماندولين جميلة، فاشتراها وأرسلها لـ «كارا». وقالت «كارا» بحماسة:

– أوتارها ذات رنين رائع. سأعزف عليها لك ولـ «دومني» بعد العشاء.

وابتسم «بول» قائلا:

– سننتظر عزفك بلهفة، «دومني» نفسها موسيقية، إنها تعزف على البيانو ببراعة. ولمعت عينا «كارا» كالألماس الأسود، وقالت:

– «دومني» تحب الموسيقى؟ أوه، الأقدار معي اليوم، «دومني» لطيفة مثلما هي جميلة، وهي أيضًا تعزف على البيانو. واحتضنت «كارا» أخاها واستطردت قائلة:

– شكرًا لك يا أخي الكبير على الماندولين، وعلى «دومني» وقال «بول» وهو ينظر إلى «دومني»:

– أنا سعيد لإعجابك المزدوج. واستدار ناحية زوجته وقال:

– هل أنت مستعدة يا عزيزتي؟ وأومأت، وابتسمت لـ «كارا»، فقد أدركت مدى تعلقها بـ «بول». ومدى إشراقها، وأعجبت بنظرات الطفولة الصريحة التي تلازمها.

–ووقفت «دومني» في الشرفة، وبدت لها ميناء «أنديلوس» أشبه بلوحة مزدهرة الألوان، وأخذ «بول» و «كارا» يلفتان نظرها إلى مراكب الصيد بأشرعتها الملونة، والدير المبني من الحجر الأبيض، وقد تسلقت جدرانه النباتات الأرجوانية، وإلى الجزر القريبة المتناثرة كأنها كتل المرجان.

ونظرت «دومني» حولها في اهتمام، وكانت الشمس تلمع فوق شعرها، وثوبها ينساب في نعومة. فبدت هشّة بجانب زوجها القوي. ولم تتنبه إلى أنها كانت موضع تحديق الرجل الذي جلس على مقعد مجاور حيث جلست عمة «بول». وكانت «كارا» هي التي لاحظت نظراته عندما استدارت فجأة بطريقتها المعتادة، وهتفت:

– أهلا، لم تكن لديَّ أدنى فكرة أنك ستأتي لتناول الشاي. أجاب:

– أردت أن أشترك في الترحيب بعودة الغائب. وتجمدت «دومني» في مكانها لدى سماعها صوته، ثم التفتت في بطه، ووجدت نفسها وجها

لوجه مع «باري سوتيرن» مرة أخرى! لم يكن قد تغير على الإطلاق، باستثناء لمسات النضج المتزايد. وحملقت عيناه الشقراوان الناعستان إلى عينيها، وتذكرت جيدًا ذلك الفم الواسع المرح الباسم، وتلك الخصلة المتهدلة من الشعر الذهبي. وتساءلت بقلق عمّا إذا كان سيعلن معرفته بها، ثم أكدت لها غريزتها الأنثوية أنه لن يفعل، وأحست بالاضطراب عندما نهض من مقعده، وقال لـ «بول» بابتسامة ماكرة:

– أنت شديد الحظ.. أراهن أنك إذا سقطت في البحر، فستخرج ومحّارة في أذنك، محّارة داخلها لؤلؤة.

– أرى يا صديقي من النظرة اللامعة في عينيك الفنانة، أن لؤلؤتي تروق لك. وعندما قاد «بول» «دومني» إلى المائدة في الشرفة ليقدم «باري» إليها أحسّت بقبضة ذراعه القوية حول خصرها. وقالت «دومني»:

– «كارا» أخبرتني يا سيد «سوتيرن» بأن أعمالك رائعة. وأحسّت وهي تتعامل مع «باري» كغريب، أنها تلعب لعبة خطيرة. وردّ هو:

– سأكون سعيدًا بأن أريك بعض أعمالي ذات يوم يا «دومني». وأحسّت بقلبها يحذرها، حين رأت «بول» يرمق «باري» بواحدة من نظراته الحادة، ولكنها في الوقت نفسه أرادت أن تقول: «لقد عرفت هذا الرجل قبل أن تقتحم أنت حياتي يا طاغيتي الوسيم بوقت طويل. لقد جاءني بالمرح، وليس بالتهديد، وذهب عني لأنني كنت صغيرة عندما تقابلنا، ولأنه كان يريد أن يثبت أقدامه كرسام». ولكنها قالت:

– سأتطلع إلى رؤية بعض أعمالك يا سيد «سوتيرن»، ويخيل إليّ أن نوعيةالضوء هنا في «اليونان» لابد من أن تترك تأثيرها الرائع في عمل الفنان، الألوان والخطوط لاشك في أنها ذات رونق مضاعف. قال وهو يضغط على حروف الاسم:

– هذا صحيح بكل تأكيد يا سيدة «ستيفانوس». وارتفعت عيناه إلى وجهها الذي أحاط به شعرها العسلي، فوجدهما جامدتين، باردتين، وتذكر جيدًا مرحها في الماضي، وشعر بالانزعاج وهو يتأملها تجلس على مقعد بجوار عمة «بول» وتجيب عن أسئلة العمة «صوفيولا» عن حفلة العرس، وشهر العسل، بينما كانت الأخيرة تصب الشاي، وقدمت «كارا» الحلوى والفاكهة، ثم جلست على ذراع مقعد أخيها، وهي تأكل حبة تين كبيرة. وقال «باري» موجّهًا كلامه لـ «دومني»:

– لابد من أنك زرت «الأكروبوليس» عندما كنت في «أثينا»؟

– زرته نهارًا ومساء، وأعجبني. وقال «بول» بابتسامة جافة:

– «دومني» من النساء اللواتي يفضلن الأشياء المقنعة على السافرة، الأعمدة الأثرية أزعجتها في ضوء النهار. وقال «باري» ناظرًا إلى «دومني»:

– غالبية النساء خياليات، وإني أتساءل يا سيد «ستيفانوس» إذا كنت ستسمح لي برسم زوجتك... واحتقن وجه «دومني» لكلام «باري»، ذلك أن العيون كلها اتجهت ناحيتها، حتى عيني «بول» غير المقروتين، خلف عدستي نظارة الشمس الرمادية، وتمنت لو تقول: «لا يا «باري» لا تجعل الأمور أصعب مما هي عليه الآن». وابتسمت «كارا» في براءة لـ«دومني»، ثم نظرت إلى «بول» وقالت:

– يا لها من فكرة رائعة... يجب أن تدع «باري» يرسم «دومني». وأضافت:

– أوه، سيثير ذلك غيرة «ألكسيس». إنها تعتقد أنه لا توجد من تماثلها جاذبية. وسأل «بول»:

– على فكرة، أين «ألكسيس»؟ وفهمت «دومني» من تعبير فمه أن طلب «باري» لم يعجبه، ووجد في السؤال عن زوجة أخيه «ألكسيس» منفذًا

لتغيير دفّة الحديث. وقالت «كارا»:

– ذهبت «ألكسيس» في نزهة بحرية مع ناس يستأجرون منزلا على مقربة منّا، حيث سيقضون الصيف، إنهم أمريكيون أثرياء، ولذلك اندمجت معهم «ألكسيس» بطبيعة الحال. وقالت عمّتها بحدة:

– هذا يكفي، هذا شأن «ألكسيس» إذا كانت تفضل صحبة المتحضرين على الصيادين والمتجولين على الشاطئ. وضحكت «كارا» وهي تنظر إلى قدمي «باري» العاريتين، إلا من صندل على الطراز الروماني وقالت:

– أعتقد أن العمة «صوفيولا» تعنيك، يا «باري»، لأنك تسكن في كوخ على الشاطئ. وبعدم اكتراث عقد ساقيه، ونظف بنطلونه من فتات الحلوى، وفهمت «دومني» من تقطيبة وجهه أنه يفكر في الأيام الماضية، شعر بأنه يجب أن يرحل... ورغم ذلك لم تشعر بالحزن، ذلك أنها كانت تحس أنهما لابد سيلتقيان مرة أخرى. وأفاقت «دومني» من شرود أفكارها، لتجد أن «كارا» جلست منكمشة بين ذراعي «بول» مثل قطة صغيرة، وهزّت العمة رأسها وهي تتأمل الاثنين، وقالت:

– إنك تفسدها يا «بول»، «كارا» بلغت السابعة عشرة، ويجب أن تبدأ في تعلم الاتزان، إنك تعاملها كقطة، وليس كل الرجال يحبون أن تتخذهم زوجاتهم مقاعد مريحة. وجرت الضحكات أشبه بالريح على فم «بول»، وربت على شعر أخته الداكن، كان مقصوصًا بطريقة غريبة، كما كانت قد عبثت فيه بالمقص. وابتسم «بول» قائلا:

– آه، حسن، إن أحدنا لم ير الآخر منذ حوالي ثلاثة شهور، وأنا مدين لها ببعض التدليل. وأغمضت «كارا» عينيها الداكنتين، وبدت كقطة فعلا وهي تمسح وجنتها في صدر أخيها. أما «دومني» فجعلها صوته الحاني تتذكر الليلة في الفيلا عندما بدأ شهر العسل.. ذلك الصوت

العميق الدافئ، نقلها إلى الجنة، وكم آلمها، ولا يزال يؤلمها اكتشافها أن «بول» خدعها. وابتسمت «كارا» لـ «دومني» وقالت:

– كم يبدو غريبًا أن أفكر الآن في «بول» كزوج، وأرجو ألا يضايقك أنني أستعمل زوجك كمقعد مريح. وقالت «دومني» باستخفاف:

– أهلا وسهلا بك. ولكن لم يخفَ عليها أن «بول» قطب جبينه، ولا النظرة التي ألقاها «باري» على ساعة معصمه، كما لو أنه لاحظ شيئًا في سلوكها ارتسم صداه في عينيه، فأسرع يخفيهما حتى يسيطر على نفسه من جديد، وتلاحقت نبضاتها وقد أحست بالخطر يحدق بالأجواء. ونهض «باري» واقفًا، وانحنى أمام عمة «بول» قائلا:

– شكرًا يا سيدة «ستيفانوس» على الشاي. ثم نظر إلى «دومني» وقال:

– أتمنى أن تستمتعي بالحياة في الجزيرة، ولعلك أنت و «كارا» تشرفانني في يوم من الأيام. وقالت «دومني» لتسكته:

– سأفكر في ذلك. وانتقل «باري» ببصره إلى «بول» وقال:

– وستفكر يا سيد «ستيفانوس» في السماح لي برسم زوجتك؟ وأحست «دومني» في سؤال «باري» بالتحدي، وانتظرت بقلب خافق رد «بول» الذي قال:

– أجل، سترسم زوجتي يا سيد «سوتيرن» ولكن ليس الآن. وأعتقد أنه لن يضيرك أن تنتظر بضعة شهور. وأطلق «باري» ضحكة قائلا:

– سآخذها على أنني يجب أن أنتظر! من حسن الحظ أني استأجرت الكوخ لمدة سنة رد «بول» في بطء:

– لن أدع أيًا منكما ينتظر عامًا.. وفي تلك اللحظة سمعت «دومني» عمته بجانبها تحبس أنفاسها عندما وخزتها إبرة التطريز في أصبعها، وقالت وهي تلتقي بنظرة «دومني» الجانبية:

- يا لي من حمقاء! حمقاء للغاية في كبر سني، لقد تركت على الدانتيلا بقعة دم. وعلقت «دومني» وهي تتابع «باري» بعينيها:

- يا للخسارة! واتجه «باري» نحو السلم، طويلا، فارعًا، وأشعة الشمس فوق شعره الذهبي، حتى ذلك الحين كانت «دومني» لا تكاد تصدق أن «باري» عاد إلى حياتها. ولكن كغريب. ونادت «كارا» خلفه:

- لا تنس حفلتنا مساء الغد للترحيب بـ «دومني» و «بول»، ستأتي، أليس كذلك؟ وابتسم لها قائلا:

- ما من شيء يمكن أن يحول بيني وبين المجيء، وداعًا للجميع.. وحتى مساء الغد. وساد صمت ثقيل بعد رحيله، ثم قامت «كارا» وسألت «دومني» إذا كانت تحب أن ترى ثوبها الذي سترتديه في حفلة الغد. ورحبت «دومني» بالفرصة للفرار، ولكن عندما مرت أمام مقعد زوجها، أمسك بيدها وتأملها لحظة، وأحست بقلبها يخفق بين ضلوعها وهو يتفحص وجهها من خلف العدستين الرماديتين اللتين كان يبدو بهما غامضًا، جامدًا، وقال بهدوء مثير:

- يبدو أنك وجدت «باري سوتيرن» شخصًا مسليًا.

- أعتقد ذلك لأنه إنجليزي. وأحست بضغط أصابع «بول»، وانسحبت الابتسامة من على شفتيه وهو يسألها:

- أما زلت تشعرين بأنك غريبة معي؟ وعضت شفتها، وأحست بـ«كارا» وعمته ينظران نحوهما، وحينئذ أدار «بول» يدها ببطء، ورفعها، وقبّلها، وتلقت «دومني» القبلة دون أية حرارة في قلبها، مدركة أنها مجرد إعلان عن ملكيته، عن نزوته.

✲ ✲ ✲ ✲ ✲

- 8 -

أطلقت «دومني» صيحة امتزجت فيها الدهشة بالطرب، إذ كان مخدع «كارا» أشبه بمحل للآلات الموسيقية الغريبة، وعبست «كارا» لرد فعل «دومني»، ثم التقطت آلة «الماندولين» التي أهداها لها أخوها، وداعبتها بيدها النحيلة، وهي ترمق «دومني» بعينين داكنتين كعيون الغجر. والتقطت «دومني» صورة على المكتب لسمراء جميلة، كانت ترتدي ثوب زفاف. شعرها كان مصففًا بطريقة غريبة، واقتربت منها «كارا» ونظرت من وراء كتفها وقالت:

- إنها صورة أم «بول»، «بول» يشبهها، ألا تعتقدين ذلك؟ وهذا هو والدنا في الإطار المجاور، مسكين أبي، لم يكن سعيدًا مع أمي، إنني لا أتذكرها جيدًا، ولكن العمة «صوفيولا» تقول دائمًا إنها كانت النزوة الحمقاء لرجل في منتصف العمر. وداعبت «كارا» أوتار آلتها واستطردت قائلة وهي تضحك:

- وأنا ثمرة ذلك الزواج... الثمرة الشاذة. واغتاظت «دومني»، ذلك لأنها أحبت في الفتاة براءتها. وسألت:

- من زعم أنك ثمرة شاذة؟ قالت «كارا»:

- أوه، «ألكسيس»، وأحيانًا عمتي. إنهما لا تفهمانني، وتعتقدان أنه من الغرابة أن أعشق الموسيقى الشعبية إلى هذا الحد. وسألت «دومني» وهي لا تشعر بالارتياح نحو «ألكسيس»:

- «ألكسيس» كانت متزوجة من أخيك الأصغر يا «كارا»، أليس كذلك؟ وردت «كارا» بوجه معكر:

- أجل، كانت زوجة «لوكاس»، لقد مات منذ ثمانية عشر شهرًا،

في البحر مثل أبي... البحر قاسٍ علينا، رغم أنه مصدر رزقنا.وقالت «دومني» برقّة:

– إنني آسفة على موت أخيك يا «كارا». ولمعت الدموع في عيني الفتاة، فحولت «دومني» انتباهها ناحية صورة أخرى حتى لا تزيد من آلامها، وطالعتها صورة الوجه الأسمر من خلال إطار آخر، صورة «بول» عندما كان في مثل عمر «كارا» تقريبًا، لكنه كان مختلفا عن الآن، بملابسه الغريبة من جلد الماعز، وقبعته الصوفية فوق وجهه الرفيع. وقالت «كارا» بفخر:

– كان «بول» في السادسة عشرة من عمره عندما حارب مع المقاومة، كان مقاتلا فدائيًا، وقد أصيب إصابة بالغة بقنبلة يدوية في أثناء معركة «أثينا»، وكاد يموت، وكان ذلك سبب حدوث الندبة. ولمست «كارا» بأصبعها وجهه الخالي من الندبة في الصورة، وعادت تقول:

– الندبة لا تهم.. ما زال «بول» أوسم الرجال في الجزيرة، ولسوف ترزقان بأبناء رائعين. وأمسكت «كارا» عن الكلام حينما أعادت «دومني» الصورة إلى مكانها على المكتب بسرعة تسببت في وقوعها، وأطلقت «دومني» ضحكة صغيرة مقتضبة، وقالت:

– تزوجت أنا وأخوك منذ بضعة أسابيع فقط يا «كارا»، ولم نفكر بعد في تكوين أسرة. قالت «كارا» بحرارة:

– لكن الأطفال فرحة كبيرة، إنهم أجمل شيء في الزواج، أو هكذا يبدو لي.

– أنا، أنا لا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع، إذا لم يكن في ذلك ما يضايقك يا «كارا». وبدت «دومني» مرتبكة، مرتجفة، وهي تتصفح كتابًا عن أغاني البحر، ولكن «كارا» اغتاظت بعض الشيء، وبالحاح طفولي

عادت تطرق الموضوع. وقالت:

– ألا تتمنين أن تمنحي «بول» طفلا؟ إن فخر كل امرأة يونانية هو أن تعطي رجلها ولدًا. هل الإنجليزيات مختلفات؟ هل هن باردات... مثل جمالهن؟ وأجابت «دومني» في صوت خافت:

– إننا... ليس من عادتنا أن نتناقش في أمورنا الخاصة. وكانت «دومني» بعيدة كل البعد عن النفور من الأطفال، ولكن الطفل في رأيها كان يجب أن يولد عن حب، ولم يكن حبًا ما يستشعره «بول» عندما كان يأخذها بين ذراعيه. وداعبت «كارا» أحد أوتار «الماندولين»، واختلست نظرة نحو وجه «دومني» وهي تتظاهر بتصفح الكتاب الذي كان بيدها، وسألتها:

– هل نبدو نحن... والجزيرة... غرباء عليك؟ قالت «دومني»:

– «أنديلوس» عالم آخر بالنسبة إليّ. أحسّ بأجوائها الأسطورية، لكنني أدرك عدم انتمائي إليها في الوقت نفسه. اعترضت «كارا» قائلة:

– ولكنك بالطبع تنتمين... أنت زوجة «بول»... وهذا يجعلك واحدة منّا، لا شك في أن عاداتنا ستبدو غريبة في البداية، ولكنك في وقت قصير للغاية ستشعرين وستتصرفين كزوجة يوناني، وستجدين متعة في ذلك. وأضافت «كارا»ضاحكة:

– «بول» شديد السيطرة بالطبع، وأنت إنجليزية ومن الطبيعي أن يحدث صراع، ولكن كما نقول في «اليونان»، لا يوجد زواج خالٍ من الصراع، ثم من المصالحة. سألت «دومني» بهدوء:

– هل نبدو حقًا يا «كارا» متصارعين؟ قالت «كارا» مؤيدة:

– أستطيع أن أقول إنه توجد بعض الخلافات بينكما، ولكن بداية الزواج هي مرحلة وضع الأمور في نصابها، والسعادة تكتسب ولا تقدم

لنا فوق طبق. وابتسمت «دومني» متسائلة:

– هل كل اليونانيين فلاسفة؟ والتفتت «كارا» قائلة:

– بالطبع، كان اليونانيون متحضّرين، عندما كان غيرهم متخلفين.. تعرفين ذلك طبعًا. وأحنت الفتاة رأسها فوق آلتها، وارتفعت أنغام موسيقية يونانية قديمة، واستمعت إليها «دومني» وهي تفكر في «بول»، والنمر الذي يربض في أعماقه.

النمر، النمر، يهدر في الظلام، بعينين ذهبيتين تتأججان بالرغبة التي تحركها هي في أعماقه وتكرهها، ووقفت وعيناها تنظران إلى صورته في شبابه. وقالت حينما توقفت «كارا» عن العزف:

– أنت تجيدين العزف يا «كارا». وتحسّست «كارا» «الماندولين» بأصابع يسري فيها الحب، وقالت:

– هذه الآلة تجعل أي نغم جميلا. إن «بول» يحضر لي دائمًا الهدايا التي أحبها، ذات مرة، عند عودته من إحدى رحلاته، أحضر لي معه شجرة ورد حقيقية، وقد عُلّقت بأغصانها العصافير... ولكن ذلك عندما كنت صغيرة. وذهبت «دومني» إلى غرفتها ترافقها موسيقى «الماندولين». وفتحت الباب وفوجئت عندما رأت «بول» واقفًا في الشرفة. أما هو فاستدار عندما سمع وقع خطواتها وسألها مبتسمًا:

– هل أعجبك هذا البيت القديم؟ ووصلت إلى منتصف الغرفة، ولاحظ البريق القاسي في عينيها، كأنه دموع متجمدة ترقد فيهما. وسمعها تقول:

– ماذا تريد منّي أن أجيب يا «بول»؟ إن المكان ساحر، وإنني سأحب زيارته؟ وبحركة تنطق بالتعب وبالضياع أزاحت الشعر من فوق عينيها. وقالت:

– البيت ساحر، لكنه مليء بأقاربك الذين سيتكهنون ولا شك كيف تسير الأمور بيننا. هل تعرف أن «كارا» حدّثتني عن ذلك؟ قال ببطء وهو ينفث دخان سيجاره المتصاعد في حلقات أمام عينيه الذهبيتين:

– لا أستطيع أن أبدأ بالتكهن.

– كانت تتحدث عن الأطفال... أطفالنا... وتصلّبت عيناه وهما تتفرسان وجهها الذي ينطق بالتأنيب. وقال:

– أنا آسف لأن «كارا» ضايقتك، ولكنها طفلة، ولذلك فهي تقول ما في قلبها، يجب ألا تأخذي كلامها على محمل الجد.

– هل يمكن أن تقترح أن أطبق نصيحتك على بقية الموقف؟ هذا الادعاء بأننا عروسان سعيدان ، ولا وجود للحب في أفق حياتنا.

– اليونانيون لا يفصحون عن مشاعرهم علانية، وسيكدَر أقاربي أكثر مما يسعدهم، إذا أظهرت عواطفك نحوي علانية، إذا كنت تحملين لي أية عواطف!

– مما يريحني أن أعرف أنني لست مضطرة إلى تمثيل دور العروس السعيدة وأطلقت «دومني» ضحكة صغيرة، واستطردت قائلة:

– أنا لا أجيد التظاهر ولا الادعاء، حتى عندما كنت طفلة لو أخبرني أحد بوجود مارد في الغابة... لصدقته. وترك سيجاره ببطء وابتسم من خلال الدخان قائلا:

– وماذا عن ذلك الحيوان الذي يشبه الحصان وله قرن ثور يا «دومني»؟ هل تذكرين ذلك التمثال الصغير الذي اشتريته لي بكل ما معك من نقود... وأمسكته بيدك كطفلة وأنت تهرعين إليّ؟ قالت «دومني» ببرود:

– أوه... كنت بالفعل طفلة... مجنونة صغيرة غنّت عدة ساعات مثل...

مثل طائر أعمى. وذابت الابتسامة على شفتيه. وقال:

– تعلمت يا «دومني» كيف تكونين قاسية. قالت وهي تسحب من أحد الأدراج بعض ملابسها الداخلية، وتخرج من الدولاب ثوبًا طويلا:

– لديّ أفضل مدرس... أنت يا «بول». وذهبت إلى الحمام، وحينما كانت تغلق الباب، شعرت بالزهو لأنها آلمته، ذلك الحيوان الخيالي! كان موضوعًا على مكتبه في تلك الغرفة في بيته وكأن «بول» كان يختزن إحساسًا بالسعادة لما يرمز إليه هذا الحيوان من إذعانها...إذعانها الكامل له... ولكن ذلك لن يحدث أبدًا مرة أخرى... كانت تعني ما قالته له في الفيلا إنه يستطيع بكل ترحيب أن يستمتع بما اشتراه، ولكن قلبها سيظل ملكها. ولمحت صورتها في المرآة وهي خارجة من تحت الماء، كانت عيناها عيني إنسان غريب، وتأملت نفسها وقد لفت حولها منشفة، أين ذهبت «دومني دان» الطفلة التي كانت تبحث عن الأشباح في الغابة. وكانت تحلم في السابعة عشرة بشاب طويل، ذي عينين مرحتين، وشعر أصفر، وأغلقت «دومني» عينيها لتتحاشى رؤية الفتاة التي في المرآة. الفتاة التي يملكها رجل لا تحبه!

ولم تلبث «دومني» أن اكتشفت أن اليونانيين يفضلون تناول الطعام في الهواء الطلق، تحت أشعة الشمس. أو على ضوء النجوم، وأن وجباتهم المسائية تبدأ في ساعة متأخرة، وأنهم يبطئون فيها،و يتحدثون عن أشياء كثيرة، وغالبًا ما ينتصف الليل قبل أن يأووا إلى فراشهم. وكانت النجوم تلمع في المساء عندما خرجت «دومني» مع «بول» إلى الحديقة حيث مدت المائدة المليئة بالأطعمة. كانت ترتدي ثوبًا من الدانتيل بلون المشمش، وأحاط شعرها الأشقر بوجهها في تصفيفة رائعة. وبدا «بول» في بدلة السهرة الداكنة أكثر طولا بجانبها. وقد جذب ببدلته الداكنة،

وسلوكه الغامض الانتباه، وجعل من «دومني» هدفًا لعيني شابة كانت تقف ممسكة بكأس بجانب نافورة مضاءة. كانت ترتدي ثوبًا خوخي اللون وانعكست عليها أضواء النافورة، فأظهرت وجنتيها الشامختين، وعمق عينيها الغامضتين، وغزارة شعرها الأسود حول عنقها، وبخطوات المرأة الواثقة بجاذبيتها المفرطة، تقدمت من «بول» و «دومني» فأدركت «دومني» في الحال أن تلك المرأة هي «ألكسيس»، أرملة «لوكاس» الذي مات غرقًا، وتفحصت «ألكسيس» «دومني» بنظرات فاترة وهي تسألها إذا كانت «أنديلوس» أعجبتها، كانت لغتها الإنجليزية سليمة جدًا، وكانت لهجتها غاية في النعومة، وقالت:

– أتمنى ألا تجدي نفسك معزولة تمامًا عن كل ما هو متحضر في ذلك البيت الذي يملكه «بول». واستدار «بول» إلى المائدة يسكب كأسين، ولم تكن عمته وأخته قد ظهرتا بعد، وردّت «دومني» بعد أن شكرت «بول» وهي تأخذ منه كأسها:

– اعتدت الحياة في بيت ريفي. ولم تكن «دومني» تتوقع أن تحب «ألكسيس» كثيرًا، إذ أحسّت أنها ستجدها من ذلك النوع الذي يعيش لنفسه فحسب. كان ذلك واضحًا عليها كعطرها العنبري النفاذ، الذي كان منتشرًا حولها وملحوظًا في حركاتها الشبيهة بحركات القطة الفارسية الميّالة إلى الرفاهية. وأطلقت «ألكسيس» ضحكة عالية. وقالت:

– ذلك البيت! ألم أقل لك من قبل يا «بول» إنه أشبه بالصومعة؟ ورشف «بول» رشفة من كأسه، وقال وهو يواجه عينيها:

– قلت ذلك، لكنه قد بُني كذلك حتى يمكن أن يجد فيه الرجل مهربًا من المدنية المزعومة.

– ولكن «دومني» امرأة... وواحدة في مثل حلاوتها لابد من أن تشعر

بالملل مع مرور الوقت وهي منفية في صومعتك المنعزلة. أعرف أنني شخصيًا كنت سأشعر بذلك. قال «بول» مبتسمًا:

– أنت مخلوقة قلقة من بنات المدينة يا «ألكسيس». و «دومني» فتاة ريفية، وأرجو أن تجد متعة في همسات البحر وأشجار الصنوبر. والسير في الغابات نهارًا. وهتفت «ألكسيس» وهي ترمق من فوق حافة كأسها:

– صحيح؟! وأحست «دومني» بشعور عدائي نحو تلك الفتاة لم يسبق لها أن أحسّت به نحو غيرها، إذ كان واضحًا أن «ألكسيس» لم تكن تعني بأن يكون بيت «بول» غير ملائم لزوجته لكنها كانت كقطة جميلة تنهش في كل شيء، لتستمتع فقط باستعمال مخالبها. فردت «دومني»:

– إنني أحب الغابات لأنها تذكرني بوطني. وقالت «ألكسيس» بابتسامة لـ «دومني»:

– لا تدعي ساحرة الغابة تجذبك بعيدًا يا عزيزتي... فقد تضيعين... وقال «بول» بجفاء:

– عرفت هذه الغابات منذ كنت صبيًا... وإذا ضلّت «دومني» طريقها، فسأجدها حالا، وسأعود بها إلى البيت. ومنحته «ألكسيس» ابتسامة ناعسة من خلال أهدابها وهي تقول:

– يا لك من شخص محب للسيطرة، يا «بول»! ثم نظرت إلى «دومني» وقالت:

– أليس مرعبًا لإنجليزية أن تتزوج واحدًا من اليونانيين المستبدين؟ وأحست «دومني» بالتوتر وبقيت بجانب «بول»، وشعرت بالارتياح عندما حولت «ألكسيس» اهتمامها إلى وصول مضيفتهم، واثنين من الخدم يحملان صواني الطعام. وظهرت «كارا» لاهثة الأنفاس في ثوب

أخضر، ومعها آلة «الماندولين» التي وضعتها بعناية على مقعد تحت إحدى الأشجار. وقالت «ألكسيس» وهي تتشدّق بالكلمات:

– هل سنستمع إلى الموسيقى في أثناء تناولنا الطعام؟ ورمقتها «كارا» بنظرة غجرية متحفزة، وقالت:

– «دومني» ترغب في سماع الموسيقى اليونانية، هل عندك مانع؟ وحولت «ألكسيس» عينيها نحو الفتاة وقالت:

– ومن أكون في هذا البيت حتى أمنع شيئًا؟ ثم حملقت إليها وهتفت:

– أحمر شفاه يا «كارا»؟ هل وضعته من أجل «نيكوس»؟ آه... ها هو قادم... «نيكي»، ابنة خالك الصغيرة وضعت أحمر شفاه تكريمًا لك!

وكان «نيكوس» شابًا وسيمًا لطيفًا، وفي طريقه إلى «بول»، شدّ شعر «كارا» دون رقة. وأحسّت «دومني» بمدى زهو أمه الأرملة به، كما أحسّت أيضًا أن الصغيرة «كارا» متعلقة به وإن لم تكن تشعر بذلك تمامًا، ذلك أن وجهها احتقن بشدة لملاحظة «ألكسيس»، ومسحت أحمر الشفاه في سرعة بمنديلها. وجلس «نيكوس» بجوار «دومني» على المائدة، وساعدها حديثه الودّي على الاسترخاء والاستمتاع بأطباق الطعام اليونانية، وانطلق «نيكوس» بابتسامته المرحة يشيع جوًا من البهجة في أثناء تناول الطعام، فكان يقدم النخب في صحة العروسين وهو يردّد قولا مأثورًا:

– الزيت من الكريم، والخل من البخيل والنخب من الأبله! وباختلاس نظرة نحو «بول»، تبينت «دومني» أن «نيكوس» يشبه صورته في شبابه وهو بملابس المقاتل الفدائي، وأحسّت أنه منذ ذلك الحين، تدخل الشيطان، وأحال الشاب المثالي إلى رجل قاسٍ، وتساءلت عمّا إذا كان

أحد الموجودين حول المائدة يشك في ذلك، أم أنهم كانوا يعرفون ويتقبلون الأمر باعتباره طبيعة الرجل اليوناني الناضج؟ وقال «نيكوس»:

- لابد من أن «أنديلوس» تبدو غريبة بعد «إنجلترا»، وأنك تشعرين حتمًا بأنك بعيدة جدًا عن وطنك!! وردت «دومني»:

- أجل «إنجلترا» تبدو بعيدة جدًا. وغمز «نيكوس» بعينه عبر المائدة لـ «كارا» وقال:

- إذن يجب أن نبذل أنا و «كارا» قصارى جهدنا لنعاونك على الإحساس بأنك في وطنك... وابتسمت «دومني» للشاب الذي ضحك بصوت مرتفع وقال:

- «بول»... يجب أن تحافظ جيدًا على أقحوانتك البيضاء هذه، وإلا سرقتها منك، هل توجد لها مثيلات كثيرات في «إنجلترا»؟ ابتسم «بول» قائلا:

- تستطيع أن تذهب إلى هناك في مهمة، وحينئذ سترى بنفسك لكنني لا أظن أنك ستجد أخرى مثل «دومني» تمامًا. وضرب «نيكوس» بيده على المائدة زهوًا فأنّبته أمه على تصرفه الذي اهتزت له الأطباق وأدوات المائدة، وقالت:

- إذا تصرفت كصبي، فسيعتقد «بول» أنك غير لائق بعد لمركز مهم في العمل. وقال «بول» بتؤدة:

- «نيكوس» في حالة معنوية طيبة يا «صوفيولا»، وأنا أستمتع بسماع الخيالات التي يمتلئ بها الشباب. واهتزت أهداب «ألكسيس» الطويلة فوق وجنتيها بينما كانت النظرة التي رمقت بها «بول» تخفي ضحكًا غامضًا وهي تقول:

- إنك لم تصل بعد إلى الشيخوخة يا «بول»، إن لك خيالاتك أيضًا.

وتقلصت أصابع «دومني» حول كأسها، ذلك أنها أحست أن «ألكسيس» بما لها من حاسة القطة، تبينت أن «بول» تزوجها عن جموح خيالي وليس عن عاطفة، «بول»... شقيق الزوج... الغني...الجذّاب... الذي لابد من أن تكون «ألكسيس» نفسها قد حركت خياله. وقالت «كارا» حالمة:

- أنا أحب كل تلك الحكايات الخيالية والخرافية، إن بيت «بول» يبدو لي دائمًا ذا طابع أسطوري وهو يقع شامخًا فوق صخرة النسر المطلة على البحر. وقال «نيكوس» مازحًا في مودة:

- وهل تتصورين «دومني» الأميرة الأسيرة؟ واتكأت «كارا» على المائدة، وأسندت ذقنها إلى يدها، وابتسمت قائلة:

- بل إن «دومني» تشبه البجعة المسحورة التي خلعت رداءها لتستحم كفتاة، والتي اضطرت إلى أن تتزوج الرجل الذي سرق رداءها البجعي. ورمقت العمة «صوفيولا» ابنة أخيها بنظرة حادة، وصاحت:

- عمّ تتكلمين أيتها الطفلة؟ هل ترى يا «بول»؟ إنها تعيش في عالم وهمي وأفرغ «بول» ما في كأسه وقال:

- «كارا» في السادسة عشرة... طفلة. ولكن «دومني» لمحت بريق الغضب في عينيه، كانت أخته غير الشقيقة الوحيدة التي تملك كل عواطفه، وتساءلت «دومني» إذا كان يجب أن تعيش معهما. كان من الواضح أن «كارا» ليست سعيدة في حضانة عمتها، ذلك أن «نيكوس» كان يظهر لها من الاهتمام المختفي وراء مزاحه معها أكثر مما كانت أمه تحب، بالإضافة إلى وجود «ألكسيس»، التي لم يكن مزاحها في رقة مزاج الشاب أو براءته. وقررت «دومني» أن تقترح على «بول» دعوة «كارا» لقضاء بعض الوقت معهما، وإقامتها يمكن أن تمتد لتصبح دائمة،

إذا وجدتها إقامة سعيدة، وكانت «دومني» واثقة بذلك، إذ كانت «كارا» متدفقة الحيوية، وموسيقية، وكان بيت «بول» يحتاج إلى قفزات الشباب في أرجائه، وإلى ضحكات تعيد النبض إليه، ذلك النبض الذي خلا منه في خلال السنوات القليلة الفائتة. وأفاقت «دومني» من شرودها عند ذلك الحد، لتجد «ألكسيس» تحملق إليها وابتسامة صغيرة على شفتيها، ثم تحول بصرها ناحية «بول»، ولمحتها «دومني» تزم فمها الأحمر وهي تقيس بعينيها عرض كتفيه، ثم ترتفع بهما إلى الشفتين المطبوعتين بالتصميم، وبالحدة، وبالرغبة. وعندما نهض الجميع من حول المائدة، لتناول القهوة على المقاعد المرصوصة تحت الأشجار، أحست «دومني» بأن «ألكسيس» تراقبها و «بول» يحيط كتفيها بوشاح من الدانتيل، وينزع من شعرها حشرة صغيرة استقرت فيه، ورغم أنها كانت لمسة خفيفة، لكنها كانت تنطق بالتملك ليشهدها الجميع... تملكها من شعرها الأشقر، حتى قدميها الصغيرتين في الحذاء الفضي... هي الإنجليزية الباردة الرقيقة... كانت ملكًا للزوج اليوناني المستبد. وتوترت «ألكسيس» إذ رأت «بول» يوجه «دومني» إلى المقاعد الأكثر انعزالا.

- 9 -

سبق لـ «دومني» أن استمعت إلى الموسيقى اليونانية القديمة في «أثينا»، لكنها تبينت أنها لم تكن شيئا يذكر بالمقارنة مع سحر الأنغام التي عزفتها «كارا». وكانت «كارا» تغني بنعومة تارة باللغة اليونانية، وأخرى باللغة الإنجليزية. وسرت رجفة في أعماق «دومني» مع نهاية

كلمات الأغنية الحزينة.

– لا أستطيع أن أموت إلا إذا كنت بجانبي أيها الوجه الروحاني، أيها الملاك، مع آخر أنفاسي قبلني حتى الموت. وأحاط «بول» كتفي «دومني» بذراعه في قوة وسألها:

– هل تشعرين بالبرد؟ فهمست وهي تشعر كأن أصابع القدر تسللت في خلال ظلمة الليل لتسرع من خفقان قلبها تحت يد «بول»:

– كلا، إنها الموسيقى، وتلك الأغنية الصغيرة الحزينة. وقفزت «ألكسيس» واقفة على قدميها وقطعت روعة الغناء، قائلة وبريق غريب في عينيها:

– دعونا نذهب جميعًا إلى ملهى «القناع الفينيسي» لنرقص... سيكون ذلك أكثر بهجة من الجلوس هنا والاستماع إلى موسيقى «كارا» الحزينة، لابد من أن آل «فانهوزن» هناك وربما يكون «باري سوتيرن» انضم إليهم، إنه يحب الرقص. وقال «نيكوس» بتكاسل وهو يمد ساقيه الطويلتين فوق سور الحديقة:

– أنت نشطة أكثر من اللازم يا «ألكسيس»، ولكني أحب الموسيقى التي تعزفها «كارا» عادت «ألكسيس» تقول بنفاد صبر:

– أوه، هيا بنا، سيكون لدينا متسع من الوقت للجلوس وسماع الموسيقى عندما نكبر، الآن أفضل الرقص، وفرقة الموسيقى في الملهى جيدة للغاية. وقالت «دومني» وقد خفق قلبها لدى سماعها من «ألكسيس» أن «باري» ربما يكون قد ذهب إلى الملهى:

– أنا أفضّل الذهاب... وقال «بول» مرغمًا:

– حسنًا سنذهب إذا لم تكوني متعبة. وبمرح انفلتت «دومني» من بين ذراعيه وهي تقول:

– وهل يمكن أن يُصاب الإنسان بالتعب في «اليونان»؟ ثم ذهبت مع الفتاتين لإعادة تنظيم شعرها، ولإحضار وشاح، بينما رفضت العمة «صوفيولا» الانضمام إلى المجموعة، معلنة أنها تخطت عمر الذهاب إلى الرقص. وضحك «نيكوس» قائلا:

– نراك في الصباح! ثم انحنى وقبّل وجنتيها، فأمسكت بكتفيه لحظة، ونظرت إليه بشغف، ثم تركته يذهب، دفع بابنة خاله داخل سيارة ذات سقف منخفض وكانت «ألكسيس» على وشك الدخول في سيارة «بول»، لكن «نيكوس» أمسكها من خصرها. وقال مازحًا:

– ستركبين معنا، مازال «بول» و «دومني» في مرحلة الرغبة في الانفراد. قالت «ألكسيس» متجمدة وهي تشير إلى سيارته:

– سنتحطم في هذه الحشرة. ودفعها «نيكوس» وهو يقول:

– تفضلي يا سيدتي. واستدار ليلقي بابتسامة إلى «بول» قائلا:

– سنسير أمامك يا بن الخال، النجوم منخفضة الليلة حتى يمكنك تقبيلها. وقالت «دومني» و «بول» يوجه السيارة في اتجاه الميناء:

– إنها جميلة، هذه النجوم، لم أكن أعرف أن النجوم يمكن أن تظهر ضخمة هكذا، أستطيع أن أخطف واحدة لنفسي. وسأل «بول»:

– هل تعتقدين أنك ستحبين الحياة في الجزيرة؟ واستنشقت «دومني» عبير الأزهار النامية فوق الهضاب، ولم تستطع أن تنكر تجاوبها مع سحر «أنديلوس» الأسطوري، وقالت مبتسمة:

– أجل يا «بول»، الجزيرة ساحرة، مكان مناسب للنسور والأفاعي. وقالت وأصابعها تداعب حقيبة يدها:

– فكرت يا «بول» أنه سيكون لطيفًا إذا أقامت «كارا» معنا فترة، أنا على ثقة بأنها ستسّر بذلك، إنها متعلقة بك للغاية، ثم إنني أجدها

شخصية ممتعة. ولم يرد لمدة دقائق، ثم قال:

– أعرف أنك تحبين «كارا»، لكني أعتقد أن دافعك هو خوفك أن تكوني وحدك معي. قالت وهي تشعر بنظراته مصوبة نحوها:

– إنك لم تفكر في أن تجعلني أسيرتك. وكانت تجلس بجانبه تمامًا، ووشاحها حول كتفيها، وقد تدلى من كل من أذنيها القرط ذو القلب اللؤلؤي الذي أهداه لها. وقال «بول» برقة:

– هل من الضروري أن تتحدثي بهذه الطريقة المأساوية يا حبيبتي؟ واحتقن وجهها غضبًا وهي تقول:

– لك أن تتظاهر أمام الآخرين بأنك الزوج المغرم يا «بول»، ولكن لا تفعل ذلك عندما نكون بمفردنا، دعنا على الأقل نكون صادقين في أن وجهي وجسمي هما كل ما تريد، أما الإنسان الذي بداخل هذا الجسم فلا يهمك أبدًا، إنني أشك في أنك تعرف شيئًا عمّا إذا كنت عندما تزوجتك أهتم بآخر أم لا، إنك لم تفكر أبدًا في أن تسأل، هل فكرت يا «بول»؟ شيء لا يهمك ما دمت قد حصلت على ما تريد. واقتربت السيارة من الميناء، وعلى بعد حوالي 800 متر كان يقف يخت تنبعث منه أصوات الموسيقى والضحكات، وبهدوء سأل «بول»:

– هل كنت مهتمة بشخص آخر؟ وتفحصت «دومني» جانب وجهه، كان في كمال الفن الإغريقي، ولكنه أيضًا كان باردًا وجامدًا كالرخام الذي نحت منه الإغريق تماثيلهم. وكم تلهفت أن تعلن بأنها كانت تهتم برجل آخر. وأنها لم تكف عن الاهتمام به، وأنها منحته كل العواطف التي لن تستطيع أبدًا أن تمنحها لأحد سواه. ولكنها حتى في انفعالها وغضبها.. كان لخوفها من «بول» اليد العليا، واستدارت جانبا لتقول ببرود:

– وما الذي يمكن أن يعنيك في ذلك؟ ما كنت لتهتم بمشاعري، إنك مخلوق من حجر. قال ببطء:

– ليس تمامًا، الرجل المخلوق من حجر لا يحركه وجه أو جسم، ولا يجرحه برودهما. وارتجفت كأنه لمسها بكلماته. وأحكمت وضع الوشاح فما الذي يتوقعه «بول»؟ ليس الحب بكل تأكيد، من امرأة منحته نفسها لتنقذ أسرتها من الفضيحة، كلا، إنه لا يتوقع منها العاطفة إنها تيقنت أن «بول» يعيش منطويًا معزولا عن الناس، وإنه يعاني وحدة غريبة، كان في السادسة والثلاثين من عمره، ولكنه كان يبدو أحيانًا أكبر من تلك السن بكثير.

وعاودت «دومني» أحداث تلك الليلة بوضوح، كانا قد أمضيا اليوم كله في السباق، حيث بدأ يعاني الصداع وتأثرت هي لمعاناته، وتعجلته العودة إلى الفندق، حيث تناولا عشاءهما في شرفة جناحهما، ورغم أنهما لم يتحدثا إلا قليلا، ولكن شيئًا من الألفة كان يقربهما، وعندما ذهب إلى غرفته، وبقيت هي وحدها في غرفتها، سمعته يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا لأكثر من ساعة... ذهابًا و إيابًا... مثل نمر في قفصه، بينما بقيت هي في فراشها قلقة تتساءل عمّا إذا كان ضميره هو الذي يؤرقه، وتسربت حلقات دخان سيجاره إلى غرفتها. ومرة أو أكثر همت بالنهوض لتذهب إليه، وكانت يدها على الغطاء، وعلى وشك أن تقذف به، عندما انقطع صوت خطواته، وسمعته يأوي إلى فراشه. وتبينت من الخطوط العميقة على صفحة وجهه صباح اليوم التالي، أنه لم يقدر على النوم، وبخشونة عانقها وهي في ثوبها الحريري، وحبس السؤال المهذب في فمها. وضحك دون مزاج قائلا:

– إذن سمعتني وأنا أذرع الغرفة. ومن جديد انتزع عنوة ما لم يكن

من الممكن أن تمنحه إياه برضاها. والآن... والسيارة في طريقها إلى الملهي، التفت «بول» ليواجهها وقد أسند مرفقه إلى عجلة القيادة، وقال:

– يمكنك أن تأخذي «كارا» للإقامة معنا، إذا كنت تحبين ذلك، ولكن ستحزن الفتاة لو علمت أننا نتقاسم شهر عسل مرّ. واهتزت «دومني» للطريقة التي تكلم بها. وقالت محتدة:

– ألم ألعب دوري بتعقل حتى الآن؟ إنني أحب لـ «كارا» أن تقيم معنا ليس لصلحتي فحسب، ولكن لأنني أشعر بأنها ليست سعيدة في بيت عمتك. لابد من أنك تشعر بذلك يا «بول». وهز رأسه قائلا:

– منذ ترملت عمتي، أصبحت متعلقة للغاية بـ «نيكوس»... ومن الأفضل لـ «كارا» أن تعيش معنا، من قبل كنت غالبًا ما أتغيّب عن الجزيرة، ولذلك كان بيتي موحشًا لها، الآن تغيرت الأمور، الآن لي زوجة، أجل، لكل الاعتبارات، أدعو «كارا» للإقامة معنا. قالت «دومني» بهدوء:

– إنها تحبك يا «بول»، ولن أفعل شيئًا يمكن أن يدمر ذلك الحب فأنا لست منتقمة. وربت شعرها، وبدا فمه في خلال لحظة رقيقًا وهو يقول:

– آه، كلا، أنت حسّاسة إلى حد التطرف، ولذلك تجدين من الصعوبة أن تفهميني، ربما بمرور الوقت ستفهمينني. وداعبت أنوار الملهى وجه «دومني» وهي جالسة في السيارة، وخفق قلبها، نصف هذا الخفقان كان تهيبًا، ونصفه الآخر كان شوقًا مستترًا، لأن تجد «باري» في الملهي، ولأن يرقصا معًا. ونزلت من السيارة، وسمعت خلفها صفقة الباب القوية، ثم أحسّت بيد «بول» على مرفقها وهما يصعدان سلم الملهى، وفي الداخل

قدمت له فتاة قناعًا أسود، وقدمت لـ «دومني» قناعًا ذهبيًا. وأطلقت «دومني» ضحكة منفعلة وهي تضع قناعها، وقالت:

– أحسّ في هذا القناع كأنني فتاة من القرن السادس عشر. ولمحت بريق النمر في عيني «بول» من خلال القناع الأسود، وافتر ثغره عن ابتسامة وهو يسير معها داخل الملهى، حيث كان البعض يرقص «الفالس»، والبعض الآخر كان جالسًا في خلوة يتحدث، وتلفتت «دومني» حولها، وقد انفرجت شفتاها، واحتبست أنفاسها في حلقها عندما رأت شخصًا طويلا، عريض الكتفين، يشق طريقه خلال الراقصين، كان قناعه قرمزيًا، وكان من المحتم أن تعرفه في أي مكان، وسط الزحام، بسبب رأسه الذي يشبه رأس الأسد. وحياهما. ثم سأل «بول»:

– هل تسمح لي بأن أرقص مع زوجتك، يا سيد «ستيفانوس»؟ ورد «بول» بفتور بالموافقة، وهو ينسحب، بينما كان «باري» يسحب «دومني» داخل حلبة الرقص وقالت «دومني» لنفسها: «إنه الدخان الذي أغشى عينيها». عندما تلاشت سنوات البعاد، وتحركت هي من جديد على أصوات الموسيقى مع «باري». ولمدة لحظات ظلا يرقصان دون كلام. وهما يدوران كما لو كانا وسط السحاب، وأخيرًا همس باسمها، وقال:

– «دومني»... لقد أوشك قلبي أن يكف عن النبض عندما ظهرت في الشرفة عصر اليوم. و «كارا» أخبرتني بأن أخاها تزوج فتاة تدعى «دومني». ولكني لم أصدق، لم أكن أريد أن أصدق أنها أنت... ليست «دومني» التي تخصّني. وامتلأت عيناها بالدموع وهو يتكلم، وتعثرت، فأعانها «باري». وأرعبها ذلك، إذ كان «بول» يتحدث مع «ألكسيس» وكانت توجد مرآة خلف البار تعكس حلبة الرقص بمن فيها من الراقصين وابتعدت بسرعة عن «باري» وهمست وقد تحولت فرحتها

بوجودها معه إلى خوف:

– يجب أن نأخذ حذرنا. واندسّت أصابعه في خصرها وهو يقول:

– لكني يجب أن أتحدث معك على انفراد. وتغلغلت عيناه في عينيها، وبدا فمه خطيرًا– أرادت أن تضع يدها على شفتيه، أن تجهض الكلمات، ولكنه عاد يقول بنبرات صادرة من أعماقه:

– إني أحبك يا «دومني» لم أكف قط عن حبك. أجابت:

– إنني متزوجة يا «باري»، وهذا، وهذا الحديث عن الحب يجب أن ينقطع. قال بخطورة:

– وأنا أريد أن أصرخ به... وسأفعل إذا لم تخرجي معي إلى الحديقة، لتخبريني لماذا تزوجت رجلا لاتحبينه. قالت لاهثة:

– كيف ... كيف عرفت؟ وبدأت تحس بالدوار من الرقص، ومن استمرار بقائها مع رجل آخر غير «بول»، ونظرت إلى زوجها من فوق كتف «باري»، كان جالسًا مع «ألكسيس»؟ وكان يبدو مستغرقًا معها في الأحاديث، حين كانت عيناها مسمرتين على وجهه من خلال القناع. وقال «باري» يتعجلها:

– دعينا ننسحب الآن... إن زوجك منهمك مع «ألكسيس» ذات الإغراء... قالت بخوف:

– لا يجب أن أفعل ذلك. ورغم ذلك كانت تحتاج بشدة إلى أن تتكلم مع «باري» على انفراد. ولكن بدا لها ذلك مستحيلا، في ذلك الملهى، وكفت الموسيقى، وبدأت حركة جلوس الراقصين عندما أعلن أن البرنامج سيبدأ، وخبت الأضواء مرة أخرى، وبدأ عزف موسيقى ناعمة، وخرجت من بين الستائر راقصة رشيقة، وتقدمت نحو منتصف القاعة، حيث تركزت حولها الأضواء فبدت أشبه بفراشة كبيرة مشتعلة.

ووقفت «دومني» في الظل بجانب «باري»، وقلبها يخفق بشدة لقربه، بينما رفعت الراقصة يديها السمراوين فوق رأسها وأخذت تدق بأصابعها الصاجات، وأسرعت الموسيقى، وبدأت ترقص وكانت دقات الصاجات أشبه بصوت قواقع البحر تقرع بعضها بعضًا، وتمايلت الراقصة إلى الأمام، وإلى الخلف، حتى لمس شعرها الأسود الطويل الأرض... واستحوذت على الانتباه، وتمكن شخصان من أن يتحركا إلى الخلف في الظلام من الأبواب الزجاجية إلى الحديقة... وكان الرجل يتعجل المرأة بيدين من الصعب إغفالهما وقال «باري» ضاحكًا وهو يمسك بـ «دومني»:

- تعالي هنا بين الأشجار... في ظلالها ووسط شذاها... وارتجفت من كلماته... ومن لمساته، وقالت:

- لا تفعل ... سأعود ثانية إلى الداخل عندما تسكت الموسيقى. قال بصوت غاضب، وغيور:

- هل أنت خائفة من زوجك؟

- كلا... ليس ذلك تمامًا.

- ماذا إذًا؟ جاذبيته المستبدة؟ هل هذا ما لم تستطيعي مقاومته؟ وأمسكها من كتفيها بقوة وعاد يقول:

- يجب أن أعرف لماذا تزوجت «بول ستيفانوس»، لماذا يا «دومني»، في حين كان مفهومًا بيننا، دون كلمات، أننا في يوم ما سنتزوج؟

- في يوم ما يا «باري»؟ لقد رحلت، ولم تكتب قط، اعتقدت أنك نسيتني.

- ليس هذا صحيحًا، لقد تعاهدنا على الانتظار في تلك الأمسية التي سبقت رحيلي، وأنت تعرفين أني كنت أعني ما أقول عندما أخبرتك

بأني سأعود إليك، كنت صغيرة يا «دومني»، وكنت شديدة الاعتداد بحريتك، وكنت أريد أن أفعل الكثير بحريتي قبل أن أتزوج، كنت أريد أن أحقق في لوحاتي ما فعله رجل مثل «رودان» كنت أحتاج إلى الوحدة المطلقة في أثناء عملي. وسألته وهي تنظر في وجهه القريب منها:

- وهل نجحت يا «باري»؟ قال وأصابعه تداعب خدّها:

- ذهبت إلى أماكن عديدة، وهنا في «اليونان» وجدت الضياء باهرًا حتى أنني لم أستطع التوقف عن الرسم. وساد بينهما صمت لم يقطعه سوى صوت الموسيقى المصاحبة للراقصة. وقال «باري»:

- قدامى الإغريق كانوا دائمًا يصطادون العصافير في شباك، وكانوا أيضًا يعشقون مذاق العسل المر.

- هل هذا هو تعريفك لزواجي؟

- لست سعيدة مع هذا الرجل... أعرف ذلك... رأيت عينيك... وأعرف كيف تبرق زرقتهما عندما تكونين سعيدة.

- السعادة ليست كل شيء في الحياة يا «باري». ورفع ذقنها. وقال بخشونة:

- الدموع جعلتك أجمل مما أتذكرك، ما الذي بينك وبين هذا اليوناني؟ حب أم كراهية؟

- كل ما أستطيع أن أجيبك به أنه يقف بيني وبينك يا «باري»، إنني ملكه، إنه زوجي.

- وهل عرفت معه لحظة سعادة منذ أصبح زوجك؟

- أجل، آه... تبدو مصدومًا يا «باري» كما لو كان ذلك أمرًا مستحيلا ولكنه ليس وحشًا... وأغمضت عينيها وقد عاودها القلق وقالت:

www.rewity.com

– يجب أن ندخل... الموسيقى توقفت، والناس تصفق وحاولت أن تتخلص منه، ذلك أن كل همسة، كل ظل، كل ثانية كانت تقضيها في الحديقة معه، كانت تضاعف من توترها، ثم قالت:

– ستحضر الحفلة مساء غد وسترى بعضنا البعض وسنرقص معًا. وقال وأنفاسه في وجهها:

– «دومني»... أيتها الصغيرة الحمقاء... أنا وأنت لا يمكن أن نكون مجرد صديقين أبدًا، خلقنا لنكون متقاربين أكثر من ذلك. قالت بيأس:

– ما كان، لم يعد له وجود الآن. ألا تستطيع أن تدرك ذلك؟ قال بإصرار:

– كلا، كوني ناضجة يا «دومني»، إذا اعتقدت... قاطعته قائلة:

– وإذا اعتقدت أنت أنني يمكن أن أعيش في عالم من الأحلام، وأتظاهر بأنه لا وجود لـ «بول»... فأنت مخطئ للغاية. وبعينين عاصفتين التقتا بعينيه وهي تقول:

– إنه يوناني... ومستبد للغاية.. وما من شيء يمكن أن يلغي حقيقة كوني تزوجته. تكلم «باري» بعصبية قائلا:

– أنت ملكه؟ لقد عرفت ماذا يعني ذلك لي... قالت مغلوبة على أمرها:

– إنني أنتمي إليه..؟. هذه حقيقة. ورفع وجهها إليه، وتأمل القناع الذهبي، وقال:

– أجل... إنه صاحب حق... ولكني أملك شيئا آخر، سألت مرتجفة:

– ماذا تملك؟

– أملك قلبك يا «دومني»، أنا واثق بذلك. وتجمد كل شيء حينما نطق بذلك، حتى الأشجار والثمار بدت كأنها توقفت عن الحركة لتصغي إلى لحظة حلوة، خطيرة، تجمعت في خلالها الذكريات، ووعود الشباب، وأحلام الحرية. وأحست «دومني» بلمسات اليدين التي اعتادتها، واغرورقت عيناها بالدموع، وأحست برغبة عارمة في أن تفضي لـ«باري» بكل شيء، وأن تقول له: «خذني بعيدًا... توجد مراكب في الميناء للإيجار... ونستطيع أن نكون في الصباح على بعد كليو مترات... خذني بعيدًا يا «باري»... وسنعود الشابين المنطلقين كما كنّا من قبل. وارتفع صوت «باري» يقول:

– لماذا تزوجته يا «دومني»؟ أعرف أنه وسيم وأنه يملك.. ولكن شيئًا من ذلك لا يمكن أن يكون دافعك إلا إذا كنت أحببته، أخبريني يا«دومني».

– أنا ... أنا لا أستطيع أن أخبرك... السبب يتعلق بشخص آخر.

– رجل؟

– أجل.

– ماذا حدث لك يا «دومني»؟ ما الذي غير الفتاة المرحة الجميلة التي أحببتها؟ وهزت رأسها دون كلام... ثم انفلتت، وأسرعت بدخول الملهى، وكانت بعض وريقات نبات ياسمين العسل قد علقت بشعرها. فأخذت تنفضها، ولكنها لم تكن تعرف أنها علقت أيضًا بوشاحها. ووجدت الناس ترقص من جديد. تفرست في الراقصين. كان اثنان منهما قد جعلا الباقين يظهرون متوسطي القامة، كان «بول» مبتسمًا، و«ألكسيس» معه. ثم أحست بيد على ذراعها، والتفتت لتلتقي بعيني «كارا» اللتين كانتا تتفحصان شعرها ووجهها، ثم مدت «كارا»

يدها ونفضت لها وشاحها وثوبها، وابتسمت قائلة:

– هجرني «نيكي» ليرقص مع «سوزي فانهوزن»، و «بول» يرقص مع «ألكسيس» لكن لا تهتمي. ردت «دومني»:

– أنا لا أهتم. ثم لمحت وجه «كارا» المقنع يعبس، بينما اتجهت عيناها ناحية الباب الزجاجي الذي دلف منه «باري سوتيرن». ونظر إلى «دومني» و «كارا». ورغم أنه هو و «دومني» كانا مقنعين أحست هي أن «كارا» الواقفة بجانبها رفعت عنهما القناعين. وبطرف الحذاء أخذت «كارا» تدوس الوريقات التي نفضتها عن ثوب «دومني»، لقد عرفت أن زوجة أخيها و «باري» كانا معًا في الحديقة، لكنهما ليسا كغريبين كما كانا يتظاهران.

- 10 -

لم يعمل «بول» طوال الأسبوع الأول، وأمضيا أيامهما على الشاطئ المنعزل تحت التلّة، ووسط مياه البحر الزرقاء. وكانا يسبحان ويبحران في زورق صغير، وبدا لـ «دومني» في خلال هذه الأيام والليالي التي قضتها وحدها مع «بول»، أنه يرمي إلى محو كل ذكرى تقاسمتها مع «باري» أو مع سواه وذلك بعدما أعطاها «باري» إحدى لوحاته فقامت بكل براءة تهديها إلى «بول». وما هي سوى دقائق حتى علم «بول» أنها عرفت «باري» في إنجلترا، عندما كانا شابّين وأنها أحبته حبًا عذريًا في ذلك الوقت. وعلى الجانب الآخر من المركب، جلست تراقب «بول»، بكتفيه العريضتين، وشعره الأسود المجعد، وأحست بلهيب في داخلها وقفزت لتسبح حتى الشاطئ، وأخذت تمسح المياه عن عينيها، ثم رفعت يدها

لتعصر شعرها وهي تجري فوق الرمال في اتجاه ظل الكهف حيث تركا سلة الطعام بعيدًا عن لفحات الشمس.

ولحق بها «بول»، وأقبل من الشاطئ في اتجاهها، ومن خلال أهدابها راقبته في ملابس البحر. ووجدها تقطع شرائح البطيخ الأصفر المثلج، فقال وهو يجلس بجانبها، ويأخذ شريحة:

– إني مستعد لذلك. وانهمكت أسنانه البيضاء في أكل الفاكهة الذهبية، بينما كانت «دومني» تأكل شريحتها وقد دفنت قدميها العاريتين في الرمال. واستقر نسر فوق التلال وقد فرد جناحيه، ووضع «بول» شريحة البطيخ جانبًا، حتى يتسنى له أن يراقب طيران الطائر الكبير واتسعت ابتسامته وهو يتأمل جناحي النسر، وقال:

– رائع... تمامًا مثلما جاء في المثل... هل تعرفينه يا «دومني»؟ وهزت رأسها بالنفي، وكانت تفكر في أنه متوحش، وعنيف، تمامًا مثل النسر الذي يبحث عن فريسته. وابتسم «بول» قائلا:

– المثل يعدّد عددًا من العجائب... من بينها نسر في الجو... وسفينة وسط البحر... ورجل مع فتاته.

– يا له من أمر ظريف... هل لك في فطيرة باللحم؟ وانحنت أمامه لتصل إلى سلة الطعام... وامتدت يده إلى خصرها وهو يقول:

– أجل، أطعمي الوحش، فينام لمدة ساعة، ويمكنك أن تستمتعي برؤية الأسماك الملونة، والبحث عن الأعشاب المرجانية. واحتقن وجهها للسخرية في صوته، وناولته فطيرة باللحم مع علبة الزبدة وبعض شرائح البندورة(الطماطم) واتكأ على مرفقه، وانطلق يأكل وهو ينظر إلى البحر. وسكبت «دومني» القهوة وأضافت إليها العسل البري الذي كان «بول» يحبه، وأخذ الفنجان، ورفعه نحوها قائلا باللغة اليونانية:

- في صحتك. وردت على تحيته بالإنجليزية ثم أشاحت عنه بوجهها وهي تشرب القهوة، وتأكل غداءها. كانت صحتها تهمه لأمر واحد فقط. كانت تعتقد أنه يريد منها أن تمنحه طفلا. وما كادا ينتهيان من طعامهما، حتى أغلقت سلة الطعام، وتركته لتلهو في حوض وسط الصخور، حيث كانت الأسماك الصغيرة تقفز بين أصابعها، وتمدد «بول» غير بعيد عنها فوق الرمال، ظهره للشمس ووجهه بين ذراعيه المعقودتين، ولم تكن لتدري ما إذا كان مسترخيًا ليأخذ غفوة حقًا، أم أنه كان خداع النمر الذي يفكر في مكيدة لفريسته.

وأخذت «دومني» تعبث بحبات الرمال. وهي تفكر في الطريقة التي طوّح بها «بول» بلوحة «باري» قائلا:

- أنا لا أهتم بوجودها في بيتي... يجب أن تفكري يا عزيزتي في شيء آخر هدية لي. وفي الليلة الماضية، من شدة غضبها منه، أرضت نفسها بإغلاق باب غرفتها في وجهه، وتمددت متوترة، تتنصت إلى صوت حركاته في الغرفة المجاورة، ولكنه لم يحاول أن يعالج بابها. وانتهى بها الأمر أخيرًا إلى الاستغراق في النوم، ولم تستيقظ إلا على صوت «ليتا» وهي تفتح الستائر. ولم تكن «ليتا» بالمرأة التي تبتسم كثيرًا، ولكن ابتسامة علقت بفمها وهي تتأمل «دومني» وقد افترش شعرها العسلي الغزير الوسادة. وبدا لون جلدها العسلي الشاحب منسجمًا في تناقضه مع لون قميص نومها الأزرق. وجلست «دومني» في سريرها، وقالت وهي تراقب «ليتا» تسكب لها شاي الصباح:

- كم تبدو الشمس رائعة!

- هذه هي أجمل أيام الجزيرة طقسًا يا سيدتي... العنب ينضج ويغمق لونه والجبال تمتلئ بالمواشي وبالأغنام. وسألت «دومني» وهي ترشف

الشاي الساخن:

- هل وُلدت في الجزيرة يا «ليتا»؟

- إنني من الجبال يا سيدتي، مكان قطّاع الطريق في الماضي، والأساطير الخرافية، تعرفين طبعًا أن الدماء الرومانية تسري في عروقي؟ وأومأت «دومني» وهي مأخوذة بعض الشيء بما كان يبدو على «ليتا» من معرفتها للأشياء الخفية في الحياة، وقالت «ليتا»:

- لقد اُعتدي على الجزيرة في خلال الحرب يا سيدتي عندما كنت صبية، وأحرقت المزارع، ونهبت غابات الزيتون، وأخذت الفتيات أسيرات. وشعرت «دومني» برجفة وهي تحدق إلى خادمتها، وأضافت «ليتا» بسرعة:

- كنت محظوظة، إذ خبأ جدي كل أفراد الأسرة في كهف وسط الجبال، بينما حارب أبي وإخوتي، ولم يكن ذلك آخر ما عانته «اليونان»، فقد قامت حركة التمرد، ومن جديد المتاعب والمعاناة والسلب والنهب. قالت «دومني» برقة:

- لابد من أنها كانت مرحلة حزينة ومفزعة لكم جميعًا. ابتسمت «ليتا» بطريقتها الجادة وقالت:

- ولكنها انتهت. والآن هنا في الجزيرة يجد الناس السلام والعمل، والطعام الكافي. وتناولت «دومني» بعض الحلوى، ثم ضحكت قائلة:

- بدأت أحب ألوان الطعام اليوناني يا «ليتا». جو جزيرتكم يفتح الشهية. ورمقت «ليتا» سيدتها بنظرة متفحصة، ثم التقطت فنجان الشاي الفارغ ونظرت فيه فقالت «دومني»:

- هل ترين فيه أن أمامي يومًا سعيدًا؟ وارتجفت أهداب «دومني» وهي تلقي نظرة سريعة على الباب المغلق بينها وبين «بول»، بينما قالت

«ليتا» وهي تتمعن في أوراق الشاي:

– سيحدث شيء مزعج. أرى ذلك بوضوح.

– عاصفة؟

–سيحدث شيء غير سار يا سيدتي. واحتدّ صوتها وهي تستطرد قائلة:

– سيحدث هذا اليوم. وسكتت عن الكلام عندما سمعت محاولة لفتح الباب المغلق واستدارت لتسمع تكرار الصوت، واحتقن وجه «دومني» تحت وهج نظرات «ليتا» المتعجبة، ثم قالت:

– افتحي الباب يا «ليتا». وحيّت «ليتا» السيد تحية الصباح، ثم انصرفت من الغرفة على عجل، وبقيت «دومني» في مكانها وقد شحب وجهها بعض الشيء وهي تنظر إلى «بول»، كان يرتدي قميصًا حريريًا غامقًا، وبنطلونًا رماديًا، وقال وهو يشير ناحية الباب الذي فتحته «ليتا»:

– افعلي ذلك ثانية يا فتاتي، ولن أنتظر حتى تسمح لي خادمتك بالمثول بين يديك، سأحطم الباب. وكان يبدو غاضبًا بما فيه الكفاية لأن يفعل ذلك، أما «دومني» فقد تملكتها رغبة جامحة في الضحك، ورفعت يدها وعضت على أصابعها عندما اقترب من سريرها وبدا كقط هائج، ووقف يتأملها، ولمحت نظراته تنزلق من كتفيها إلى الشيفون الأزرق الذي يغطي صدرها. وأسرعت تحجب نفسها بالغطاء، فرفع حاجبه لتصرفها، ثم أطلق ضحكة قاسية عالية كشفت عن أسنانه البيضاء. وقال:

– إغلاق الأبواب، والتظاهر بالاحتشام من شأنه أن يضاعف حرارتي لا أن يخفضها. وفي اللحظة التالية كان جالسًا على حافة السرير، محملقًا

إليها، كان وجهه خاليًا من التعبير، لم تعرف «دومني» ما إذا كان متضايقًا أو مسرورًا، ثم قال وعيناه فوق الخاتم الذهبي في يدها.

– أنا أدرك جيدًا يا «دومني» أنك لا تريدينني، ولكن أخشى أن تكوني مضطرة إلى احتمال نوبات عاطفيتي، وفي أي حال يمكنك أن تواسي نفسك أنه سيأتي يوم لن أكون فيه محتاجًا إليك أبدًا. وكان ينطق بكلماته ببرود وسخرية، ووجدت «دومني» نفسها تجفل منه كأنه صفعها، وأخذت كلماته تتردد في ذهنها، وأسلمتها صراحته الصارخة إلى حالة من الغضب. وقالت وعيناها تقدحان لهيبًا:

– فهمت يا «بول»، أفسدت حياتي لمجرد إرضاء نزوة عابرة في حياتك سحقت كبريائي، وأرغمتني على الزواج بك، لتمتلكني بعض الوقت لا غير. لقد عرفت دائمًا أن هذه هي دوافعك للزواج بي، ولكنني لم أتصور قط أنك من القسوة فتصارحني بها. وسكتت ريثما تلتقط أنفاسها اللاهثة، قبل أن تقول بغضب مليء بالألم:

– حسنًا، وشكرًا على إخباري، الآن لن أهتم بأنه من الخطإ كراهية إنسان آخر، سأشعر بأن في ذلك عدالة. قال بكسل:

– أجل، دعي نفسك تشعرين بأن في ذلك عدالة، شيء يدهش حقًا كيف أن مثل هذا التبرير يمكن أن يريح الضمير.

– أشك في أن لك ضميرًا ولكنني أعرف أنك دون قلب. وبابتسامة ماكرة تحسس عضلات صدره، ثم انحنى فوق المنضدة بجوار السرير، وأخذ الكتاب الموضوع فوقها، وفتحه وانطلق يقرأ جملة من رواية مترجمة إلى الإنجليزية لكاتب يوناني معروف اسمه «نيكوس كازانتزاكيس» وسألها:

– هل في نيتك أن تكتشفي عمق الشخصية اليونانية؟ أجابت ببرود:

- أنا أقرأ «كازانتزاكيس» للتسلية، فهذا بالنسبة إليّ هو الهدف الوحيد من قراءة الروايات. قال «بول» بابتسامة باهتة:

- كل شخص أسير ردود فعله في الحياة، لذلك فهو لا يستطيع أن يتحدث بلسان الجمع. «كازانتزاكيس» يكتب عن الحب كما لو كان سيفًا يغمد في القلب، هل تعتقدين أنه على حق؟

- لا أعرف. قال وعيناه تضيقان:

- مع أنك أحببت، ألم تحبي يا «دومني»؟ قالت ببرود:

- أن تقع في الحب، هو أن تسلم نفسك لأهواء، وربما لقسوة شخص آخر، وأنا لن أخاطر ثانية. وأشار «بول» ناحية الباب الذي أغلقته في وجهه في الليلة السابقة، وقال:

- هل فعلت ذلك، لأني طوّحت بلوحة «سوتيرن»؟ ألم يكن ذلك عدم مبالاة فحسب؟

- عدم مبالاة في مواجهة من؟ والتقت عيناهما.. وتراجعت «دومني» إلى الوراء محتمية بوسادتها حينما انحنى «بول» فوقها، وقرب وجهه من وجهها. ثم نهض واقفًا. وقال وهو يعيد الكتاب إلى مكانه على المنضدة:

- عليّ أن أذهب لمقابلة شخص هذا الصباح، ولكني سألحق بك لنتناول الغداء معًا على الشاطئ.. سأطلب إعداد سلة طعام.

- كما تشاء يا «بول». وراقبته وهو يخرج من الغرفة، ويغلق الباب خلفه، ووضعت ذراعًا فوق عينيها، وظلت ساكنة عدة دقائق، ولكنها لم تذرف الدموع، كان عذابها أعمق من أن تنهمر له الدموع. وبعد إفطار يوناني خفيف من القهوة والفطائر والعسل، أخذت «دومني» كتابها وخرجت إلى الحديقة، حيث جلست تحت عريشة ومن حولها

شجر الفلفل، والصنوبر، ومجموعة من الورود ذات الألوان الجميلة، والرائحة الزكية. واستغرقت «دومني» في قراءة القصة وجاء «يانيس» حوالي الساعة الحادية عشرة حاملا سلة الطعام التي أمر بها «بول»، ولم تكن السلة ثقيلة، ولكن «يانيس» أصر على أن يحملها إلى الشاطئ وكانت «دومني» تشعر بإعزاز نحو خادم «بول» الجاد، الذي كان يستطيع أن يذكر كل أسماء طيور الجزيرة وزهورها النامية على جانبي الممر المؤدي إلى البحر. ولم يكن هو و «ليتا» قد أنجبا، وبدا لـ «دومني» أنهما بطريقة ما ينظران إليها كطفلة، وكانا يديران البيت بمهارة، حتى أنه لم يكن لدى «دومني» ما تفعله سوى اكتشاف الغرف الكبيرة، والسلالم الملتوية المؤدية إلى مخازن الأمتعة القديمة. وقالت «دومني»:

- كم تبدو الجزيرة هادئة وجميلة اليوم يا «يانيس»!

وكانت «دومني» تأخذ حمام شمس عندما لحق بها «بول» على الشاطئ، لم تسمع وقع أقدامه وهو قادم فوق الرمال، لكنها أحست بظله الطويل فوقها، وعندما جلست ورأت وجهه، وبدا لها أنه مرهق وسألته:

- هل تريد الغداء حالا؟

- كلا إلا إذا كنت تريدين، أعتقد أننا ربما نخرج في نزهة بحرية أولا. وقفزت قائلة:

- أنت على حق. ومن جديد تملت عيناها فوق وجهه، وتبينت أنه يعاني الصداع، وأنه كان يتمنى أن يخفف نسيم البحر من حدة الألم، ولمست ذراعه بأصابع مرتجفة، وقالت:

- «بول»، ماذا يقول الأطباء عن صداعك؟ وواجهها بابتسامة ساخرة، وعينين غير مقروءتين خلف نظارة الشمس، وقال:

- يا عزيزتي.. هل أنت فعلا مهتمة بي؟

– أنا لا أحب أن أرى أحدًا يتألم. ثم سحبت يدها من فوق ذراعه وقالت:

– آسفة إذا كنت تطفلت.

– سيتلاشى الألم بعد فترة. وقفز إلى الزورق، وفك الرباط ودفعه في المياه، وخلع قميصه وساعد «دومني» على القفز بدورها، وظل ممسكا بها لحظة، وهو يبتسم مثل قرصان إغريقي، وهمس:

– أحيانًا، يا أسيرتي الصغيرة، لا أظن أنك تكرهينني. ورفعت بصرها نحوه، ومن جديد تذكرت الكلمات التي تفوه بها في ذلك الصباح، وقالت بفتور:

– أنا أبذل ما في وسعي لإنقاذ صفقة سيئة. لكني أعرف الآن أن عقوبتي ليست مؤبدة. وضحك وتركها، وقاد الزورق، ولفترة ظلت الدرافيل تجذب انتباه «دومني»، وأعادت لعينيها بريقهما، وصاحت ليصله صوتها خلال هدير المحرك:

– كيف حال صداعك؟ صاح بدوره من فوق كتفه:

– أحسن كثيرًا... الدرافيل تجيد اللعب... هيه؟ انظري إلى ذلك البرنزي اللون. وكان الدرفيل الضخم كبيرًا، حتى أنه استطاع أن يميل الزورق عدة مرات، وأوشك أن يلقي «دومني» في الماء، وضحكت من أعماقها، ولكن «بول» حذرها قائلا:

– لا يوجد فقط درافيل في هذه المياه. وكان يقصد سمك القرش، ورفض أن يدع «دومني» تقفز للسباحة حتى يدخلا منطقة الأمان في البحيرة، حيث الأسماك صغيرة جدًا، ولا تجتذب الأنواع المفترسة. وعادا إلى الشاطئ، وجلست «دومني»على الصخرة، شاردة تمامًا مع أفكارها، فجفّت الرمال بين أصابعها، ونهضت وركضت في اتجاه المياه لتغسلها،

لكنها أحست بشيء ما يطعن باطن قدمها اليسرى، فأطلقت صرخة ألم. واتضح أنها داست فوق قنفذ مائي صغير، وتبينت أن بعض الشوك نفذ تحت الجلد، وكانت «دومني» تعرف أنها لابد من أن تتقيح إذا لم تنزع، وجلست فوق صخرة قريبة. وحاولت أن تنزع الشوك بأظافرها. وجاء «بول» بجانبها متسائلا:

– ماذا فعلت؟ وأخبرته، فركع أمامها، وأمسك بقدمها الصغيرة في يده... وبعد لحظة نظر إليها قائلا:

– لابد من نزع الشوك بملقاط... لكن إذا سرت على قدميك، فستتغلغل الأشواك داخل جلدك، تعالي، سأحملك حتى البيت.وضحكت بعصبية وهي تبتعد عنه قائلة:

– لن يمكنك أن تصعد بي التلّة يا «بول»، ازداد وزني منذ جئت إلى «اليونان». لكنه أحاطها بذراعيه، وحملها بسهولة وسألها:

– أما زلت تشعرين بالتوتر معي يا «دومني»؟ وعبر بها الشاطئ، ومنه تحت قوس الكهف الموصل إلى البيت وأحسّت بخفقات قلبه كاللمسات. وفجأة، وكما حدث في المركب منذ ساعة أو أكثر، أحست في كيانها ضعفًا، وبدأت تدرك حقيقة لم تكن واضحة بعد في ذهنها، ولكنها في المركب استطاعت أن تهرب من رقابة «بول» في الجانب الآخر، أما هنا بين ذراعيه... فكانت أسيرة. وازدادت ظلمة الكهف وهما يتوغلان داخله، وفجأة، مثل زئير حيوان مختفٍ،ترددت أصداء من فوقهما، وأصوات ضوضاء مخيفة، وتسمر «بول» في مكانه، وقد ازداد ضغط ذراعيه حول «دومني»، التي أمسكت بكتفه العاري بقوة، وغرست دون وعي أظافرها في جلده وهي تقول:

– ما هذا يا «بول»؟ ولم يجبها في الحال، لكنه ظل يرهف السمع، وهو

يحدق كالقط إلى وجود الخطر المفاجئ ومن جديد ارتفع صوت شيء يتصدع، واهتزت الأرض، وأوقف «بول» «دومني» على قدميها وقال ملهوفا:

- اركضي يا صغيرتي، الكهف سينقض علينا. وخفق قلبها وهي تركض. كانت تعرف أنهما على بعد دقائق من الباب الذي يمكن أن ينقذهما من الخطر المحدق بالكهف، وبوصلهما إلى البيت، ومن جديد ارتفعت أصوات التصدع، وكانت «دومني» تنظر إلى فوق مذعورة، عندما انفتح سقف الكهف وتهاوت الصخور وقذفت بها على ركبتيها، وأرغمتها على إطلاق صرخة، سرعان ما خمدت وسط سيل الغبار والألم.

- 11 -

كانت غرفة مكتب «بول» ظليلة، وقد أضفى عليها السقف المنحوت من الخشب، والجدران البيضاء جوًا من الهدوء لم يكن له صدى لدى الرجل الذي كان يذرعها ذهابًا وإيابًا كالنمر الهائج. وكان قد مضى وقت طويل منذ أن غير ملابسه الممزقة، وضمد له «يانيس» جروح يديه، ذلك أن الطبيب كان مشغولاً في الدور العلوي، وقد بدا لـ «بول» أنه انقضت عليه ساعات هناك. وألقى بسيجارته... قبل أن يكملها، وخرج إلى الشرفة التي لم يكن يفصلها عن الصخور والبحر الداكن سوى سور حديدي رقيق، كانت النجوم تلمع في السماء، وقد انتشرت في جو الليل الرطب رائحة الصنوبر أشبه بالمسك المعطر، وكانت أنوار مراكب الصيد تبدو على مرمى البصر متناثرة، كالطيور المشتعلة. واتكأ «بول» بيديه المجروحتين المضمدتين على السور الحديدي. ولو كان ذلك يسبب ألمًا،

فلم يكن ليظهر عليه أنه يشعر به. كان يقف منتظرًا، وهو يتأمل أمواج البحر تتهامس عندما تلتقي بالصخور. وأحس «بول» بوقع خطوات فوق السجادة التي تغطي أرض الغرفة وشعر بوجود الرجل وراءه أكثر مما سمعه. واستدار بسرعة ولم يكن من المستطاع رؤية تعابيره، لأن الظلمة كانت كثيفة. وصاح «بول» باللغة اليونانية:

- أخبرني، كيف حالها الآن يا «ميتروس»؟ وألقى الطبيب اليوناني نظرة إلى الحاجز الرقيق الذي يفصل بين «بول ستيفانوس» والتلال التي تنتهي بعيدًا بالصخور المتحطمة، وقال:

- ادخل يا «بول». نستطيع في الداخل أن نتحدث أفضل.

- ما هي الحقيقة يا «ميتروس»؟ هل تخشى أن تتحطم روحي تمامًا؟ هل ماتت؟ وأمسك «ميتروس» بذراع «بول» ودفعه إلى الداخل وهو يقول:

- لا نستطيع أن نتكلم هنا. وأغلق النوافذ، وأسدل الستائر. وصاح آمرًا:

- النور يا رجل... النور. وأضيء نور فوق المكتب، فألقى ظلالا من زاوية غريبة على وجه «بول»، أظهرت شموخ وجنتيه، وكانت الندبة داكنة، وحدودها واضحة ومحتقنة. والتقط «بول» أنفاسه بصعوبة وقال:

- «دومني»... لم تسترد وعيها، ألم تطلب أحدًا؟

- زوجتك لم تمت. وملأ الطبيب كأسًا صغيرة، ووضعها في يد «بول» مستطردًا:

- تعال، اشرب هذا يا صديقي. وبهزة من رأسه الداكن رفض، وأعاد الكأس، ثم حملق بعينيه إلى الطبيب متسائلا:

- ما الذي فعلته بها كل هذه الصخرة؟ هل ستصبح مقعدة؟ وكان للطبيب وجه طيب، تحت شعر داكن تتخلله شعيرات رمادية ونظر

إلى «بول»، وأخرج سيجارة ووضعها بين شفتيه، وأطلق دخانها، ثم قال بهدوء:

– زوجتك الشابة الجميلة فقدت الطفل. ونظر «بول» إلى «ميتروس» مشدوهًا، وقال:

– ماذا؟ لكن، أنا، أنا لم تكن لدي فكرة، طفل؟ إنها لم تخبرني بشيء. وتفحص «ميتروس» «بول»، ثم قال:

– ربما لم تكن متأكدة، عروس شابة، وبعيدة عن أهلها، ثم إن الحمل كان في شهرين فقط.

– شهران. وصمت «بول» كأنه ينظر إلى الوراء، ويعود بذاكرته إلى أول ليلة أمضاها مع «دومني»، وخيمت على عينيه سحابة حزن. وربت «ميتروس» ذراعه قائلا:

– إني آسف، فهذا الطفل بالنسبة إليك يعني الكثير، أعرف ذلك. ولكن الفتاة ستتغلب على الصدمة، وتستطيع أن تنجب أطفالا آخرين، الوقت أمامكما.

– كلا، لن تكون هناك فرصة أخرى... الطفل الذي كان يمكن أن تحبه، ذهب، ذهب مثل السعادة، مراوغًا، ولن نعثر عليه ثانية معًا. وقال «ميتروس» بغضب:

– يا لها من طريقة يتحدث بها رجل! هذه المرأة.. يجب ألا تحرم من طفل تحبه. قاطعه «بول» قائلا بمرارة:

– طفل؟ يا صديقي، تلك المرأة تكرهني، تكره رؤيتي، وصوتي، ولمستي، آه... أنت تبدو مصدومًا، ولكن أوكد لك أن هذه هي الحقيقة، وعندما تعيش مع هذه الحقيقة جنبًا إلى جنب لمدة شهرين، كاملين باستثناء ساعات قليلة عابرة، فإن الشك لا يساورك، إنها نظرة في

العينين، رجفة عندما أحاول اللمس، حشرجة في الصوت تخفي دموعًا لم تكن تعرفها قبل أن تلتقي بي...

– إنها تزوجتك يا «بول»!

– أنت يوناني يا «ميتروس». وتعرف مثلي تمامًا أن المرأة لا يدخل الحب في حسابها دائمًا عند الزواج.

– أنا... أنا أفهم. وأطفأ الدكتور «ديميتريوس سويزا» سيجارته، واستطرد يقول:

– هل لهذا الموقف دخل برفضك إعادة التفكير في قرارك الآخر ذلك الذي ناقشناه في عيادتي صباح اليوم؟

– ليس تمامًا يا «ميتروس». ونهض «بول»من أمام مكتبه، وخطا نحو الباب قائلا:

– والآن، هل أستطيع أن أصعد لأرى زوجتي؟

– إنها تحت تأثير المخدر يا «بول»، وستنام حتى صباح الغد، تركتها في رعاية «ليتا»، ولكن تستطيع طبعًا أن تلقي عليها نظرة. وتقدم «ميتروس» من «بول»،ولأنه كان أقصر منه قامة، تطلع إليه قائلا:

– حاول أن تنام يا صديقي، الفتاة مازالت شابة، وسليمة البنية... وستسترد صحتها بسرعة.

– هل ستأتي مرة أخرى في الصباح يا «ميتروس»؟

– بالطبع. وتخللت أصابع «بول» شعره الداكن، وقال:

– لو أني تقدمت «دومني» في الخروج من الكهف، إذن لتلقيت أنا صدمة انهيار الصخرة، ولكني طلبت منها أن تركض أمامي معتقدًا أنها ستصل إلى الباب في الوقت المناسب.

– يجب ألا تلوم نفسك على ذلك.ووصلا إلى الصالة، فأخذ «ميتروس»

حقيبته السوداء، وسترته وتصافحا أمام الباب. ثم صعد «بول» إلى الدور العلوي، وبهدوء دخل غرفة «دومني»، حيث جلست «ليتا» على مقعد بجوار السرير، تشغل نفسها بشغل التريكو على ضوء خافت. واقترب «بول» من السرير حيث كانت «دومني» ضئيلة للغاية، تائهة بتأثير المخدر الذي أعطي لها عقب سقوط الصخرة فوقها، وفقدها الطفل. وكانت أهدابها الطويلة ترسم خطين داكنين فوق وجنتيها، ويدها اليسرى فوق الغطاء، وقد بدا الخاتم الذهبي ثقيلا على الأصبع النحيل. وكان السكون في الغرفة شاملا، إذ كفت «ليتا» عن تحريك إبر الشغل، وحينئذ قال «بول» بصوت خافت:

– يمكنك أن تذهبي لتستريحي يا «ليتا»، سأبقى هنا. وترددت المرأة، لكن كان واضحًا من وجه «بول» أنه مصمم على البقاء، لذلك خرجت بعدما ألقت نظرة إلى «دومني»، ولكنها لم تتوجه مباشرة إلى سريرها، بل اتخذت طريقها إلى الدور السفلي، حيث أعدت لـ «بول» فنجان قهوة تركي داكن، ووضعت على الصينية بعض البسكويت، ثم حملتها إليه. وكان قد وضع مقعدًا بجانب الفراش حيث جلس ووضعت «ليتا» الصينية في متناول يده، ثم تركته وحده مع زوجته النائمة. وعندما تحركت «دومني» كانت أشعة الفجر تشقّ الظلام، وأحست إحساسًا مبهمًا بوجود شخص معها، يساعدها على الجلوس لتبلل حلقها الجاف بقطرات من عصير الليمون، كان كل جسمها يؤلمها وشعرت بثقل رأسها. وتساءلت وهمست:

– شكرًا. لم تكن قادرة على رفع جفنيها، لكنها أحست بكتفيه فوقها أشبه بالجناحين واستغرقت في النوم من جديد قبل أن تستطيع التفكير فيمن يكون هذا الشخص، وعندما تنبهت من جديد، كانت «ليتا» هي

الموجودة، ومعها رجل طيب المحيا هو الدكتور «ديميتريوس سويزا» وبعد ثمانية أيام كان يتناقش معها في حالة الإجهاض التي تعرضت لها، وشرح لها أن الصدمة هي التي سببت لها هذه الحالة. وجلست «دومني» ساكنة تمامًا، مستندة إلى وسائد الأريكة. ففي الحادثة كان أول إحساسها بوجود الطفل، ولكن عقلها لم يكن قد تقبل الحقيقة بعد... والآن... فات الأوان لأن تفرح أو تحزن. وقالت بهدوء:

– كان «بول» يتمنى الطفل، لابد مِن أنه تضايق عندما أخبرته بأنني فقدته.

–أنا متأكد أنه كان سيهتم أكثر لو أنه فقدك. ورغم أن إنجليزية الطبيب لم تكن في طلاقة إنجليزية «بول»، إلا أن «دومني» فهمت كل كلماته المهذبة، ثم أخذت تتفحص ساكنة يديها المعقودتين فوق ثوبها الحريري الطويل، وتأملها الطبيب وتعجب من رصانتها، فالفتاة اليونانية لابد من أن تبكي بحرقة لفقد طفلها الأول ولكن هذه الإنجليزية الجميلة الفاترة جلست بعينين جافتين، وقد بدت كأن الأمر لايحركها وأشعل «ميتروس سويزا» سيجارة وهو يفكر في أن الأمر لابد من أن يكون كما زعم «بول»، هذه الفتاة ذات العينين الزرقاوين الغائرتين، والرأس الملكي، لم تكن تحب زوجها.

وكانا يجلسان في الشرفة، حيث قدم لهما «يانيس» الشاي التركي في أكواب طويلة، مع شطائر وفطائر وحلوى، وكان «بول» قد ذهب في سيارته إلى عمته، لكي يحضر «كارا»، وعندما رأى «ميتروس» أن «دومني» تكتفي بشرب الشاي ولا تمد يدها لتملأ طبقها، قال لها:

– يجب أن تحاولي أكل بعض الشطائر، سأخدمك بنفسي.

– لست جائعة يا دكتور. ولكنك يجب أن تأكلي يا بنتي، وإلا استغرقت

وقتًا طويلا في الشفاء، هاك شطيرة دجاج، وأخرى بالجبن، وأنا أصرّ على أن تأكلي. وكانت طيبة الطبيب ومودته لا يمكن إغفالهما، ووجدت «دومني» نفسها تأكل، وتتبادل معه بعض انطباعاتها عن بلاد «اليونان»، وعلمت منه أنه أرمل، وله ابن واحد يدرس الطب في «أثينا». وقال الدكتور «سويزا» مبتسما:

– لن يسره أن يعمل طبيبًا في جزيرة، أما أنا، فالعمل يلائمني هنا، أمارس مهنتي في عيادة الأطفال التي تبرع بها زوجك والمرضى الأثرياء مثله يعاونون في دفع نفقات غير القادرين.

– هل تعالج «بول» يا دكتور من صداعه؟ وكان الطبيب يهم باختيار فطيرة،وظلت الشوكة بين أصابعه على الأقل لمدة دقيقة، وأخيرًا بعدما وقع اختياره على القطعة التي يريدها إثر تباطؤ لا يقتضيه مجرد الاختيار، رفع عينيه نحو «دومني» وسألها:

– هل حدثك «بول» عن صداعه؟

– ليس تمامًا... كان يبدو متضايقًا كلما فتحت الموضوع، لأنه قوي للغاية فيما عدا هذا الصداع، لذلك أعتقد أنه يكره الاعتراف بناحية ضعف لديه. وتشاغل الطبيب بأكل الفطيرة، وبمشاهدة النحل يمتص الرحيق من الأزهار التي تتسلق الجدران، ثم قال فجأة:

– ربما، فـ «بول» يوناني للغاية، واليونانيون غامضون إنهم أشبه بجبال الجليد التي يظهر منها جزء بسيط فوق السطح ويختفي الأكثر في الأعماق. همست «دومني»:

– جبال الجليد يمكن أن تسبب الكثير من الأضرار.

– ولكنها يمكن أن تذوب فالثلج ليس حديدًا.

– أتخيل أن ذلك يحتاج إلى درجة حرارة عالية. وضحكت «دومني»،

وابتسم الطبيب للرنين وللحيوية، والجمال الذي أضفته الضحكة على الوجه الذي لم يكن قد عرفه إلا متألمًا... فاترًا... رصينًا... ولمعت عيناه، وأدرك أنه أخطأ في اعتقاده أنها باردة. كم كانت عيناها تعكسان زرقة السماء والبحر، وكم كان فمها لذيذًا، لم تكن سوى طفلة، حساسة، خجول، ليست من النوع الذي يستطيع أن يفصح عن مشاعره. وانثنى إلى الأمام، ونظر إليها مباشرة، وقال:

– لا توجد سوى شعلة واحدة يمكن أن تقهر كل شيء، وقليلون يستطيعون التصدي لها.

– هل هذا لغز يا دكتور؟

– ممكن يا صغيرتي أن نطلق عليه وصف لغز، إنه أعقد ما في الدنيا، ولم تفك طلاسمه تمامًا رغم مرور كل هذه السنين منذ قدمت حواء التفاحة المحرمة لآدم. وتشابكت يدا «دومني»، وكأن كلا منهما تجد الراحة لدى الأخرى... وقالت:

– فهمت، إنك تتكلم عن الحب يا دكتور.

– ألست متفقة معي أنه موضوع ساحر، يا سيدتي؟ وأشاحت بنظرها بعيدًا، وتساءلت عمّا إذا كانت في غيبوبتها أفضت إليه بمكنون نفسها، كان طيبًا، وناضجًا، وكان يذكرها بعض الشيء بالعم «مارتن»، لكن أن تفضي إلى آخر بأسرارها كان راحة وقتية يعقبها الضيق، والندم. ونظرت «دومني» إلى الطبيب، وأحست من نظرة عينيه أنه يعرف شيئًا، هل تراها ذكرت «باري» في خلال ساعات الغيبوبة بعد الحادثة؟ ونهض الدكتور «سويزا» واقفًا، معلنًا أن عليه زيارة مرضى آخرين. وعندما أمسك بيد «دومني»، كان لضغطه عليها معنى، وابتسم قائلا:

– يجب أن نتحدث معًا مرة أخرى. قريبًا عندما تشعرين بأنك على

استعداد؟

– نتحدث عن ماذا يا دكتور؟

– عن الأشياء التي لا نستطيع أن نهرب منها يا طفلتي، والأشياء المحتمة كالولادة... والحب... والموت. وحدقت إليه بعينين واسعتين، تائهتين، والتقطت عيناه الداكنتان بعينيها لحظة، ثم أحنى رأسه الرمادي وقبل يدها وحياها باللغة اليونانية ومضى. وبعد نصف دقيقة خلت الشرفة إلا من وجودها، وجلست ساكنة تمامًا، وقد تملك عليها إحساس غريب بالوحدة، وكان البيت كله غارقًا في الصمت، كانت فترة القيلولة، التي يخلد فيها الجميع إلى الراحة، حتى الطيور تبدو هادئة منكمشة فوق الأغصان. واسترخت «دومني» في جلستها، وأغمضت عينيها، وسمعت حفيف أشجار الصنوبر، وهمس أمواج البحر، وبدا لها كما لو كان طفلها الميت يدق على قلبها، لقد ذهب الحب الذي كان يمكن أن يأتي به، وأن يمنحه، وانحدرت دمعة على خد «دومني».

ونامت لفترة قصيرة، واستيقظت فجأة وهي تشعر بالبرد، لم تعد الشمس تضيء الشرفة، ولاحظت أنه في خلال غفوتها، زحف الضباب الذي كان يعلو البحر وغطى الجزيرة كلها، وكون حزامًا حول البيت. وكانت «دومني» قد نبهت إلى توقع مثل هذا الضباب، ولكنها لم تكن لتتصور أنه يمكن أن يصل إلى نهاية الجزيرة بهذه السرعة، وتلك الكثافة وبشيء من التوتر تركت الأريكة، وذهبت إلى نهاية الشرفة لتنظر من فوق الصخور إلى البحر، ولكنها بصعوبة استطاعت التمييز، وإن سمعت صوت تلاطم الأمواج وزحف الضباب ببطء ليلامس شعرها... وساورها إحساس بأنها معلقة مع البيت في السحب. وسمعت وقع أقدام لكن

عندما التفتت سريعًا، وجدت «يانيس» قادمًا في اتجاهها، وصاحت:

– يبدو أننا منعزلون هنا يا «يانيس» وأومأ بجدية قائلا:

– نعم يا سيدتي، الرطوبة شديدة هنا في الخارج، ويجب أن تدخلي.

– سأدخل يا «يانيس». وأشعرها اهتمامه بالدفء، وقالت:

– هنا، فوق، أشعر كأنني «هيلين» تسير على أسوار «طروادة». هل تعتقد أن الضباب سيستمر طويلا؟

– بضع ساعات يا سيدتي.

– أوه... إذًا فسيؤخر ذلك عودة زوجي وأخته، ألا تعتقد ذلك؟ الطريق الموصلة إلى هنا ملتوية ومنحدرة، ومع صعوبة الرؤية بسبب الضباب، لا أعتقد أن «بول» سيجازف بقيادة السيارة ومعه أخته.

– أشك في ذلك يا سيدتي. وأمسك «يانيس» بالباب ريثما نفذت «دومني» إلى الداخل، حيث وجدت المدفأة موقدة. وتقدمت منها فرحة وهي تجمع أطراف ثوبها، ولم تستطع بسبب جروحها أن تنحني كما كانت تحب لتستمتع بدفئها، فجلست على مقعد «بول»، ومدت يديها لتدفئهما. وكانت «ليتا» تعد عشاء خاصًا احتفالا بقدوم «كارا»، ولما كان من الأرجح أنهما سيتأخران بسبب الضباب ، أخبرت «دومني» «يانيس» بأنها ستتناول شيئًا خفيفًا بجانب المدفأة حوالي الساعة السابعة، وأضافت أنها ترجو ألا يضايق «ليتا» التأخير في تقديم الوجبة الخاصة باستقبالهما. وابتسم «يانيس» وهزّ رأسه قائلا:

– سعادتنا في أن تستردي صحتك من جديد، هل تحبين فنجان شاي الآن، يا سيدتي؟

وأومأت بالشكر والقبول، بينما اغرورقت عيناها بالدموع وهي تراقب

«يانيس» عند خروجه من الغرفة وبذلت «دومني» جهدًا في مقاومة الدموع التي أحست بالرغبة في ذرفها. وكان فنجان الشاي ممتعًا، بجانب المدفأة حيث مدت قدميها. وكان الضباب قد امتد أكثر، وسمعت «دومني» دقات الساعة، وقررت أن تصعد إلى غرفتها لترتدي ثوبًا، كانت تشعر بالإرهاق، ولكنها صممت على ألا تأوي إلى الفراش، فالضباب كان يمكن أن ينجلي في أية لحظة، وسيكون ترحيبًا أنيقًا لـ «كارا» و «بول» أن يجداها في انتظارهما. وارتدت ثوبًا أزرق طويل الأكمام لتخفي جروح ذراعيها عن عيني «كارا» لئلا تزيد من قلقها، ولمحت وجهها شاحبًا في المرآة، ووجود هالات سوداء حول عينيها. استعلمت أدوات الزينة لإخفائها. وبدا لها الثوب متواضعًا بعض الشيء، واحتاجت لعقد يضفي عليه رونقًا. وفتحت الدرج الذي تحتفظ فيه بمجوهراتها، ووجدت بدلا من العلبة الجلدية البسيطة صندوقًا رائعًا حفرت عليه أشكال طيور، وأصداف. وفتحت «دومني» الصندوق، أجل... كانت مجوهراتها فيه، مرتبة في أدراج دقيقة الصنع أشبه بالأعشاش.

كان الصندوق الأثري لحفظ المجوهرات هدية من «بول»، تعبيرًا صامتًا عن مشاركته ومودته، لأنه طيلة الأيام الثمانية المنصرمة، لم يذكر مرة واحدة شيئًا عن فقد الطفل، وكان تصرفه في الواقع تجاهلا غريبًا. ولمست هديته، وهي تشعر ببهجة لم تتغلغل داخل قلبها، وأخرجت العقد البسيط الذي كان ملكًا لأمها، والذي لبسته يوم زواجها، اللآلئ تعتبر دليل نحس للعروس، لكنها توقعت دموعًا بعدد حبات العقد في ذلك اليوم، ولم يكن يهمها أنها تتحدى القدر.

في طريقها إلى الدور السفلي، توقفت أمام نافذة، وأطلت منها ورأت

أن الضباب ما زال يغشى المكان كله، ولمحت الأشجار في الغابة أشبه بالأشباح. وشعرت بالبيت خاليًا، خاويًا، وسرت إذ وجدت «يانيس» في غرفة الجلوس، يسدل الستائر، وكانت الأنوار مضاءة، ونار المدفأة مشتعلة. وبدا لها التوتر يفقد حدته بتأثير دفء هذه الغرفة وأناقتها وابتسمت وهي تشم رائحة الورود التي وضعها «يانيس» على منضدة قرب المدفأة، وفتحت الراديو فانسابت منه ألحان إحدى الفرق... وتهالكت «دومني» على المقعد الذي قدمه لها «يانيس»، وقالت:

-أما زال الضباب كثيفًا؟ وسكب لها كأسًا من الشراب وقال:

- مازال على حاله يا سيدتي. وتأملت كأس الشراب اليوناني الذي كان «بول» يقول دائمًا إنه يجب أن يؤكل معه التين وفطائر العسل، لأنه ما من مأدبة عشاء في القديم كانت تكمل دونه قط. وشعرت برجفة إذ بدا لها أنها تسمع ضحكته، ودفأت نفسها برشفة... وسمعت «يانيس» يقول وهو يحرك نار المدفأة لتزداد اشتعالا:

- أنا متأكد أن السيد «ستيفانوس» لن يخاطر بالعودة في هذا الضباب يا سيدتي، والآن سأحضر لك الشربة. وتناولت «دومني» الطعام لتسعد «يانيس» وزوجته، وليس عن شهية، ورفعت المائدة، وكانت تشرب القهوة وهي جالسة على مقعد «بول» عندما سمعت طرقًا عاليًا على الباب الخارجي، وخفق قلب «دومني» اضطرابًا، وكانت قد وقفت عندما فتح الباب وأقبل «نيكوس ستيفانوس» مسرعًا، يتبعه «باري سوتيرن».

✲ ✲ ✲ ✲ ✲

– 12 –

تقدم «نيكوس»بشعره الأسود المجعد من رطوبة الضباب، واتجه إلى «دومني» مباشرة، وأمسك بيديها، كانت يداها باردتين، مرتجفتين في يديه، وأدركت أن شيئًا مزعجًا قد حدث، وانتقلت عيناها إلى «باري»، كما لو كانت تستنجد به، ثم قالت لـ «نيكوس»:

– «كارا» و «بول»؟ أليس كذلك؟ هل قتلا في حادث سيارة؟ وعض «نيكوس» شفته، بينما دسّ «باري» يديه بعنف في جيبي سترته. وبدت عيناه داكنتين وهما تلاقيان عيني «دومني» التي صاحت وهي تغرس أظافرها في يدي «نيكوس»:

– أخبرني!

– «كارا» بخير، إنه «بول»، نقلوه إلى المستشفى. وتلاحقت أنفاس «دومني» تسأل:

– هل أصيب بسوء؟ وألقى «نيكوس» نظرة إلى «باري»، ثم ساعد «دومني» على الجلوس وقال:

– لقد نقل «بول» مريضًا إلى المستشفى وحالته خطرة. ووضع «باري» يدًا فوق كتفها، وباليد الأخرى قرب حافة الكأس من شفتيها وهو يقول:

– اشربي هذا. وشربت، مدركة أنه أعطاها شرابًا قويًا لأن «نيكوس» ينظر إليها بوجه شاحب ومكتئب، وقال:

– ليس من المتوقع أن يعيش ابن خالي.الأطباء يعطونه بضع ساعات فقط وفكرت في أنك تريدين أن تكوني إلى جانبه يا «دومني». وحملقت إلى «نيكوس» ذاهلة، «بول» يقترب من الموت؟! شيء لايصدق، واستطرد

«نيكوس» يقول:

– لم يكن من الصواب إخبارك بنبإ كهذا هاتفيًا. وكان «باري» معنا في البيت، فجئنا بالسيارة، كان الضباب المنخفض سيئًا، ولكن الرؤية الآن أكثر وضوحًا. الضباب؟ وما أهميته؟ وقفزت «دومني» واقفة لمحت «يانيس» يقف قلقًا على عتبة الباب وكان واضحًا على وجهه أنه سمع ما قاله «نيكوس» عن «بول»، وانطلق يهز رأسه وهو ذاهب ليحضر لها معطفها ووشاحها، ذلك المعطف الجميل الذي ساعدها «باري» على ارتدائه، ووقف يغلق أزراره لها، ثم رفع ياقته حول رأسها الذي لفته بالوشاح الذي كانت قد اشترته من «البلاكا»... «البلاكا» التي اكتشفتها مع «بول»... «بول»... يموت! ووجدت نفسها تستقر في السيارة بجانب «باري» على المقعد الخلفي، ووقف «يانيس» و «ليتا» على باب البيت الخارجي يراقبان في صمت كشبحين، بينما كان «نيكوس» أمام عجلة القيادة، متجهًا نحو الطريق المنخفض. وكان رأس «ليتا» ملفوفًا بوشاح أسود،وكانت عيناها دامعتين. وظلت عينا «دومني» جافتين تمامًا، ولكنها كانت تشعر بهما أشبه بجمرتين في رأسها وأحست كأنها ظلت تتخبط وسط الضباب فترة طويلة، وبدأت أخيرًا ترى بوضوح. عرف «بول» منذ شهور أن هذا المرض أصابه... نوبات الصداع كانت النذير... وكانت أيضًا الدافع وراء بعض أقواله وتصرفاته. «بول» كان يعرف منذ فترة أنه سيموت! وأحست «دومني» بيد «باري» تربت في دفء على يديها مواسية. بينما كان «نيكوس» يتقدم ببطء في الطريق، وتحرك إلى الأمام عدة أمتار، ثم أوشك على التوقف عندما قارب أعشابًا في منحنى شديد، وتذكرت «دومني» ليلة سابقة كانت تجلس بجوار «بول» وهو

يقود السيارة في هذه المنطقة، لقد شعرت وقتذاك بأنهما معلقان في النجوم، والآن لم تكن هناك نجوم، الضباب وحده وأشباح الأشجار.

وبعد فترة قال «نيكوس» إنه استطاع أن يلمح الفنار الذي يقع في منتصف المسافة بين «أنديلوس» وجزيرة مجاورة، وأن ذلك يعني أنهم يقتربون من الميناء، ومن المستشفى. وخفق قلب «دومني» عنيفًا سريعًا بتأثير التوتر النفسي والعقلي. ومالت على كتف «باري»، مقدرة رفقته الصامتة، القوية، ما الذي كان يفكر فيه وقد جلس ممسكًا بيدها؟ إن القدر يلعب دوره، وإنه يجمعهما متقاربين ثانية... والحياة توشك أن تفارق الرجل الذي وقف بينهما؟ وقطعت «دومني» الصمت وقد انفك رباط حلقها وقالت:

– ماذا حدث يا «باري»؟ هل كنت في بيت العمة «صوفيولا» عندما... عندما سقط «بول» مريضًا؟

– كنت في الخارج في نزهة بحرية مع آل «فانهوزن» و «ألكسيس»... وبدأ الضباب يتكاثف، وحينئذ عدنا إلى الميناء...وتناولت أنا و «ألكسيس» كأسًا عند آل «فانهوزن»، ثم رافقتها حتى البيت لأن تكاثف الضباب بدأ يزداد، ووصلنا إلى البيت في لحظة كانت سيارة الإسعاف تنقل «بول». وقد ذهبت «كارا» وعمته معه، وكان «نيكوس» في البيت فشرح لي ولـ «ألكسيس» الموقف. وهمست «دومني» وهي تتصور حالة الفتاة التي كانت تحب «بول» كثيرًا:

– مسكينة الصغيرة «كارا»، لابد من أنها صُدمت صدمة شديدة.

وقال «نيكوس» وهو يدقق النظر من خلال أنصاف الأمتار التي تتركها مساحات السيارة خلفها:

– ذهبت معه دون دموع، بدت وكأنها كبرت فجأة. بلا دموع، لأن اليونانيين الذين يبكون فرحًا، يواجهون الكوارث في صمت والألم يمزق قلوبهم، وفكرت «دومني» في أنه من الأشياء الطيبة أن «كارا» ستجد «نيكوس» بجانبها. واستغرقت رحلتهم إلى المستشفى وسط الضباب ساعتين، ولكنهم أخيرًا وصلوا إلى فناء المبنى وساعد «نيكوس» «دومني» على الخروج من السيارة.. وسار الثلاثة إلى المدخل، حيث وجههم موظف الاستقبال نحو السلم المؤدي للطابق الذي يرقد السيد «ستيفانوس» في إحدى غرفه الخاصة. وكان ضوء الممر خافتًا، وغرفة «بول» في منتصف المسافة، وعندما اقتربوا من الباب، كانت ممرضة تخرج حاملة صينية فوقها أدوات مغطاة بغطاء أبيض واتجه «نيكوس» إليها، وسألها عمّا إذا كان من المكن أن تدخل زوجة المريض لتراه. واستدارت الممرضة نحو «دومني» وقالت لها شيئًا. لكنها كانت تتكلم باللغة اليونانية، وكان على «نيكوس» أن يشرح لها أن السيدة «ستيفانوس» إنجليزية، ثم أخبر «دومني» بأن الأطباء حاليًا مع «بول»، وأن عليها أن تنضم إلى الأقارب الآخرين في غرفة الانتظار. وهناك وجدوا «كارا» وعمتها، وقفزت «كارا» وهرعت نحو «دومني»، عيناها أشبه بعيني ظبي مطعون، داكنتان وكسيرتان وحزينتان، وهتفت بيأس:

– أوه يا «دومني»، ماذا سنفعل دون «بول»؟ واحتضنت «دومني» الفتاة بقوة، ولكن لم يكن لديها إجابة لـ «كارا»، لم يكن لديها إجابة لنفسها.

وظلوا في الانتظار، لا يتحدثون كثيرًا، بينما كانت ساعة الحائط تدق بانتظام، وكثافة الضباب تخف بالتدريج، لتترك السماء واضحة بعض الشيء، وفي منتصف الليل أقبلت ممرضة شابة تحمل صينية

فناجين عليها قهوة ينبعث منها البخار، وأمسكت «دومني» بالفنجان بيديها تحاول أن تدفئهما، حينما انفتح الباب ثانية، وظهرت الممرضة الأولى، وأشارت إلى «دومني»، وعندما قفزت «كارا» بدورها، قالت لها الممرضة بأسف إنه غير مسموح لغير السيدة «ستيفانوس» برؤيته في الوقت الحالي. وتماسكت «كارا» ووجهها ينطق بالألم، وأخذت من «دومني» فنجان القهوة، وقالت بصوت مختلج:

– اذهبي إليه، إنه حقك.

وتبعت «دومني» الممرضة إلى غرفة «بول»، وعندما دخلت لم تلاحظ لأول وهلة الرجل الذي كان واقفًا في ردائه الطبي الأبيض بجانب النافذة، وسارت «دومني» ببطء حتى السرير الأبيض، حيث كان «بول» راقدًا في سكون تام، وعيناه مغمضتان، وقد ترك الألم علاماته الواضحة على صفحة وجهه، وبرقة متناهية لمست «دومني» وجنته، وأحست بالعظام الشامخة فيها، ولم يشعر بلمستها، لأنه كان فاقد الوعي. ولم تسمع الطبيب وهو يعبر الغرفة في اتجاهها، ولكنها أحست بوجوده، واستدارت لتلتقي بعيني الدكتور «ميتروس سويزا» الطيبتين وهمست:

– يبدو من الخطإ الجسيم يا دكتور أن يكون «بول»... هكذا مغلوبًا على أمره، ألا يمكن أن نفعل شيئًا؟ هل سنقف مكتوفي الأيدي، ونتركه يموت؟ وتفحصها الدكتور «سويزا» لحظة طويلة، ثم أمسك بيدها وقادها خارج الغرفة، التي دخلتها الممرضة في الحال، وأخذها إلى غرفة الاستشارات، وأغلق الباب خلفهما بإحكام، وطلب منها أن تجلس، وأطاعت، ونظرت إليه من فوق المكتب، وسألت بألم:

– ما هذا الذي يقتل زوجي؟

– قطعة صغيرة من المعدن، شظية قنبلة يدوية انفجرت في وجهه عندما كان يحارب في حركة التمرد. – ولكن ذلك حدث منذ زمن بعيد، كيف استطاع أن يعيش طوال تلك السنوات؟

– هناك حالات أكثر غرابة يا عزيزتي، وهذا الجسم المعدني لم يكن ليسبب له أي قلق على الإطلاق، ولكن عقب حادثة معينة منذ سنتين بدأت المتاعب، هل تعرفين أن «بول» كان له أخ؟

– «لوكاس» مات غرقًا منذ عامين تقريبًا، وكان «بول» هو الذي غاص في البحر ليحاول إنقاذه.

– بالضبط، ولكنه بعدما خرج إلى السطح، تعرض لحالة إغماء ورأينا أنه من الحكمة أن يبقى في المستشفى لمراقبة حالته، وفي خلال هذه الأيام أجرينا له اختبارات، واكتشفنا أنه في أثناء خروجه إلى السطح في حالة نقص الهواء، تحركت الشظية المعدنية تحت الضغط، واستقرت في مكان أكثر خطورة في المخ... ومنذ ذلك الحين يا «دومني» بدأ زوجك يعيش في خطر. و وضعت «دومني» يدها فوق حلقها المتألم وقالت:

– وهل أخبرته بذلك؟ وبابتسامة يختلط الحزن فيها بالإعجاب، قال «ميتروس»:

– «بول ستيفانوس» ليس بالرجل الذي يمكن أن تخفي عنه الحقيقة. إنه مقاتل فدائي شجاع منذ السادسة عشرة من عمره، تحول إلى رجل رائع بمرور السنوات، رجل شجاع، جريء، يحمل كثيرًا من الاحترام لحقائق الحياة، ولا يمكن تضليله ، ولقد هاجمته موجات الصداع دفعة واحدة، موجات حادة كانت تستعصي أحيانًا على الأدوية، ولكن ليس دائمًا. وجلست «دومني» ساكنة للغاية ، كانت تستعيد المرات التي عاش

«بول» في خلالها وحيدًا داخل قوقعة آلامه، وأحست نحوه بحنان بالغ. وأحست بغصة في حلقها وهي تسأل فيما يشبه الصراخ:

– ألا يمكن فعل شيء؟ بكل تأكيد يمكن انتزاع هذه الشظية المعدنية بالجراحة، و «بول» يملك النقود، إنه يستطيع أن يدفع نفقات أشهر جراح. ومال «ميتروس» نحوها، وقال وقد عقدَ يديه:

– أوافقك تمامًا، توجد جراحة يمكن أن تنقذه، ودونها سيموت حتمًا كما لابد من أن يأتي الصباح. لكن إذا نزع جرّاح خلال الساعات القليلة القادمة الشيء الذي يقتله، فإنه إما أن يموت، أو أن يعيش حياة أشد ظلمة من الموت. وحدقت «دومني» إلى «ميتروس»، وقد هوى قلبها، وهمست:

– تقصد، يفقد بصره؟

– بالتأكيد، ولكننا لا نعرف ما إذا كان ذلك سيكون كليًا أو جزئيًا. ونهض «ميتروس» من مكانه، واتكأ على المكتب بجانب مقعد «دومني»... وقال:

– توسلت إلى «بول» أن يوافق على إجراء الجراحة، ولكنه انتفض ذعرًا من فكرة أن يصبح أعمى، وعبئًا على الناس الذين كان يرعاهم ويحميهم دائمًا. وفي مقدمتهم «كارا» الصغيرة، والآن أنت ياعزيزتي. وهمست «دومني» تخاطب نفسها:

– أوه... لماذا لم يخبرني؟!

– لأنه رجلٌ يكره الشفقة... ولكن بالنسبة إليه، الموت أهون من العمى، ألم تلاحظي كيف يحب اليونانيون أن يخرجوا من بيوتهم منذ الصباح المبكر حتى الظلام تحت أشعة الشمس الوهاجة؟ ألم تلاحظي

كيف يضيئون بيوتهم بأنوار ساطعة ليبعدوا ظلام الليل عنها؟ و «بول» كيوناني اختار أن يموت لا أن يعيش في الظلام. وتشبثت «دومني» بطرف المكتب وهي تقول:

– لكن يجب ألا يموت! ماذا سنفعل دونه، «كارا» وأنا، وكل الناس هنا في الجزيرة، الذين يحتاجون إليه كثيرًا؟ وابتسم «ميتروس» قائلا بهدوء:

– هل تحققت مما قلته الآن يا عزيزتي؟ وأومأت برأسها، وقد امتلأت عيناها بالدموع، وهمست بحرقة:

– يجب أن تجرى له هذه العملية، أنا، أنا أستطيع أن أوقع الأوراق المطلوبة، ألا أستطيع يا دكتور «سويزا»؟ أليس ذلك حق الزوجة؟ ودار «ميتروس» حول المكتب، ورفع سماعة التليفون، وقال وعيناه تنظران في عينيها:

– بالطبع هذا حق الزوجة، ولكن هل عندك الشجاعة لمواجهة «بول»، وهو حي هائج بعد أسبوع من الآن؟ وقفت، ورفعت رأسها عاليًا، والتمعت عيناها الزرقاوان ببريق شديد، وقالت بمعنويات مرتفعة:

– يستطيع أن يقتلني إذا شاء. أين الأوراق التي سأوقعها يا دكتور؟ قال وهو يدير رقمًا:

– أولا سأتصل بـ «أثينا»، كانت الابتهالات صادقة، فانقشعت عنّا غمامة الضباب، دعينا الآن نبتهل أن نجد الجراح الذي نحتاج إليه بلا ارتباطات ليأخذ أول طائرة قادمة إلينا.

وأغمضت «دومني» عينيها، ودعت الله، بينما كان «ميتروس سويزا» يتكلم في الهاتف باللغة اليونانية.

كانت أرض حديقة المستشفى مبللة بندى الصباح، وكانت العصافير تغرد فوق أغصانها، وأشعة الشمس تشرق على قمم الأشجار بلونها الذهبي فبعد ضباب اليوم السابق، أحست «دومني» وهي تنظر من نافذة غرفة المستشفى التي تقاسمتها مع «كارا»، أن اليوم سيكون يومًا رائعًا. وكانت «كارا» لا تزال نائمة، وقد عاد «نيكوس» بأمه إلى البيت منذ بضع ساعات، كما ذهب «باري» أيضًا، بعدما ضغط على يد «دومني» في يده، مثلما فعل فيما مضى، في ذلك اليوم الذي افترقا فيه على الشاطئ الإنجليزي، ولكن هذه المرة، كان كل منهما يعرف أنه فراق إلى الأبد. ووضعت «دومني» معطفها فوق كتفيها، ومشت بحذر نحو الباب، لأنها لم تكن لتريد إزعاج «كارا» في نومها، وفتحت الباب على مهل وخطت نحو الخارج، إلى ممر بارد، حيث كانت الحركة قد دبت، بغدو الممرضات ورواحهن. ونظرت كثيرات إليها لكنهن كن مشغولات فلم يقلن شيئًا واتخذت هي طريقها إلى الدور الذي تقع فيه غرفة «بول». وعندما وصلت أمام الباب ترددت، ثم فتحت وأطلت على الداخل، كان سرير «بول» خاليًا، والأغطية ملقاة على جانب، تاركة مكانه خاويًا تمامًا. لم تشعر «دومني» قط بمثل هذه البرودة تسري في كيانها. إحساس رهيب بالبرودة استبد بها وهي تنظر إلى الفراش الخالي، مكان رأس «بول» كان علامة فوق الوسادة، وساعة معصمه كانت على المنضدة المجاورة للسرير، وأحست بالدنيا تدور من حولها، وسمعت صوتًا يقول لها تماسكي، ثم شعرت بيدين حازمتين تمسكان بها، وتجلسانها فوق مقعد، وجلست وهي ترتعش، بينما كان الدكتور «سويزا» يصبّ ماء مثلجًا في كوب، ويقربه من شفتيها، ويقول:

– أيتها الطفلة الحمقاء... تعرضين نفسك لمثل هذا الذعر؟ كان يجب أن تنتظري حتى آتي وأخبرك بأن «بول» أخذ إلى غرفة العمليات، فقد وصل الجراح منذ نصف ساعة. وكان الماء باردًا فوق شفتيها، وجاء الخبر دافئ الأثر، وسألت:

– كم ستستغرق الجراحة؟

– بضع ساعات على ما أعتقد، اسمعي يا صغيرتي، لماذا لا تعودين إلى البيت؟ إن أجواء المستشفى ستضغط أكثر و أكثر على أعصابك في خلال الساعات المقبلة.

– أفضل أن أبقى، أقسم بأن أكون عاقلة، سأشرب أنا و «كارا» القهوة، وبعد ذلك سنجلس في الحديقة.

– بصفتي طبيبك كان يجب أن آمرك بالعودة إلى البيت، ولكنك دون شك ستكونين أشد اضطرابًا وأنت تنتظرين الأخبار، اجلسي في الحديقة، فالشمس أشرقت. والجو دافئ ولن يصيبك أنت والأخت الصغيرة أذى هناك. وجلست ونظرت إليه بعينين واسعتين في وجهها الشاحب، وقالت:

– هل الجراح ماهر يا «ميتروس»؟

– واحد من أفضل الجراحين، صلب مثل «بول» نفسه، وأمثال هؤلاء الرجال يصلون دائمًا إلى أهدافهم، ألا يفعلون ذلك؟ وعضت على شفتها وهي تقول:

– لست متأكدة هذه المرة، إن «بول» بالتأكيد سيكرهني عندما ينتهي الأمر، ولكن كيف كان لي أن أتركه يموت؟

وأسرعت «دومني» عائدة إلى الغرفة التي تركت فيها «كارا» نائمة،

حتى تخبرها بأن «بول» أصبح بين يدي الجراح، وأن الأمل معقود على أن يمنح «بول» نظره إلى جانب حياته. ومرّ الوقت بطيئًا، ثم فجأة لمحت «دومني» إحدى المرضات مقبلة نحوها حيث جلست مع «كارا»، ونهضتا لمقابلتها، فأخبرتهما بأن السيد «ستيفانوس» خرج من غرفة العمليات، وأنهما تستطيعان المجيء لإلقاء نظرة عليه. وأضافت المرضة التي كانت تتكلم باللغة اليونانية مع «كارا» التي قامت بمهمة الترجمة أن الجراح يرجو بعد ذلك أن يتكلم مع مدام «ستيفانوس».

وخفق قلب «دومني» ذعرًا، والتقت عيناها بعيني «كارا» في توسل، وسألت «كارا» المرضة بلغة يونانية سريعة، ثم قالت:

- المرضة تقول إنها مجرد شكليات. ولكن أصابعهما ارتعشت وهما في طريقهما إلى الداخل.

- 13 -

بدا «بول»، شأن المرضي دائمًا عقب عملية طويلة ومرهقة، كأنه لن يصحو أبدًا. وكان رأسه ملفوفًا بالضمادات البيضاء، وانقطع حبل الصمت في غرفة النقاهة عندما تركت «كارا» أخيرًا العنان لدموعها، وقالت وهي تشهق بعبراتها:

- إن... ذلك لأنني سعيدة للغاية... سعيدة... سعيدة جدًا لأن «بول» سيكون على ما يرام.

وكان الجراح رجلا طويل القامة، أسود الحاجبين، ثقيل الكتفين وقال

لـ «دومني» بطريقته الصريحة الصارمة إن عليها أن تفهم أنه لا يمكن التأكد في هذه المرحلة ما إذا كان فقد بصر زوجها سيكون كليًا أو جزئيًا فخلال انتزاع الشظية، تعرضت الأعضاء البصرية للتلف، ولذا يجب على السيدة «ستيفانوس» أن تعد نفسها للأسوأ، وأن تتمنى الأفضل، وفي أحسن الأحوال، فإن «بول» سيحظى بنور عينه اليسرى! وأصرت العمة «صوفيولا» على أن تقضي «دومني» الأسبوع التالي في بيتها، لأنه أقرب إلى المستشفى، كذلك ليس من مصلحة «دومني» أن تبقى وحيدة مع القلق في ذلك البيت الكبير الخالي. ووافقت «دومني» على الاقتراح، لكن كان عليها أن تذهب إلى البيت لتحضر بعض الملابس، ولأنها أيضا أرادت أن تطمئن «يانيس» و «ليتا» إلى أن «بول» سيكون بخير. و وجدت البيت ساكنًا للغاية، ولكن في الخارج كان الرجال في حركة دائبة على الشاطئ. بعضهم كان يرفع الأحجار من سرداب الكهف الذي لم يعد صالحًا للاستعمال، والبعض كان مشغولا بتركيب سلك كهربائي جديد لتشغيل مصعد يصل بين الشاطئ وأعلى القمة. كانت تلك فكرة «بول»، وكانت قد وضعت موضع التنفيذ منذ عدة أيام، وفكرت «دومني» أنها ستكون الآن مفيدة للغاية، لأن «بول» لن يتمكن من استعمال المرات المتآكلة لمدة أسابيع، ربما حتى نهاية عمره، إذا لم تتحقق المعجزة التي كانت تدعو لها. وكتبت رسالة لعمها قبل أن تنتقل إلى بيت العمة «صوفيولا» وجلست أمام مكتب «بول» في غرفته الخاصة، واستعملت القلم المزخرف الذي كان ملكًا لجده. كان لديها الكثير لتخبر به العم «مارتن»، ولكنها لم تكن تريد أن تقلقه كثيرًا، لذلك لم تذكر له شيئًا عن الطفل الذي فقدته، واستغرقت الرسالة صفحات عدة،

WWW.REWITY.COM

وأراحها أنها أخرجت على الورق بعض ما كانت تعانيه من مشاعر القلق بشأن حالة «بول». وبدت لها «فردان» بعيدة... كبيت في حلم... حيث تجولت ولعبت ولم تكبر قط – مثل «أليس» في بلد العجائب التي أعجبت بقصتها وهي صغيرة. وجلست بهدوء على مكتب «بول»، ثم أمسكت بيدها ثقالة الورق النحاسية المصنوعة على شكل ذلك الحيوان الخرافي ذي القرنين. الهدية التي أعطتها لـ «بول» ذلك اليوم من شهر العسل في مدينة «لوو» يوم... غريب... وتذكرت كيف تمزقت إربًا سعادة ليلة حبها السابقة قبل أن تتوارى الشمس وراء الأفق. وأخذت بأصبعها تتابع خطوط الثقالة الخارجية، رمز أكثر الأشياء مراوغة، كان ذلك ما قاله «بول»، رمز السعادة، نسيج الأحلام... ونهضت تخرج من الغرفة وقد حملت معها الثقالة مثل غنيمة.

وكانت «ليتا» قد حزمت حقيبة لـ «دومني»، وحملتها إلى الباب. وكان الباب مفتوحًا، وقد وقفت على السلالم مجموعة من الناس خلف عيون قلقة، ومتلهفة لسماع «دومني» تؤكد بنفسها أن زوجها سيشفى من مرضه وسيعود قويًا من جديد. وكانوا جميعًا يحملون هدايا من الفاكهة والأزهار لتأخذها «دومني» معها. وحينما امتلأت ذراعا «دومني» بالأزهار، لم تستطع أن تتكلم، لأن طوق التأثر أحكم إغلاقه حول حنجرتها، وتجمعت الدموع في عينيها، وتساقطت فوق باقات الورد الجميلة ذات الرائحة الزكية، حينما دفنت فيها وجهها، ثم ركضت نحو السيارة.

وكانت الأيام القليلة التالية أخف وطأة على «دومني» لأن «كارا» رافقتها، و «نيكوس» عندما يعود إلى البيت من العمل. لقد بدا جادًا وناضجًا منذ

وجد نفسه مسؤولا تمامًا عن المكتب. وتنهدت العمة «صوفيولا» قائلة وهي تطرز:

– أصبح ابني رجلا... يخيل إليّ أنني منذ يوم أو أكثر، كنت ما أزال أحمله طفلا بين ذراعي... آه... ولكن سامحيني يا «دومني»... ما كان يجب أن أحدثك عن الأطفال الآن، وإن كنت لا أشك في أنك سترزقين بآخرين مع تحسن حالة «بول» بعد العملية. إنه لن يلبث طويلا يا صغيرتي حتى يعود إلى بيته. وظلت «دومني» تتشاغل بالمجلة التي كانت تتصفحها، ذلك أن أحاديثها مع «بول» بجانب سريره، لم تكن تتضمن أية إشارة للمستقبل، وكانت «كارا» تذهب دائمًا معها في خلال زيارتها له، وكلما كانت تلمح برغبتها في تركهما على انفراد لحديث خاص، كانت «دومني» تصاب بالهلع، وكانت دائمًا تفرح عندما ترى ابتسامة «بول» وهو يأمر أخته أن تبقى حيث هي. وكانت «كارا»، وهي تبدو أشبه بجنية في الثوب الأخضر، أفضل ثيابها، تعود إلى الانكماش ثانية بجانبه على السرير، وهي تنقل بينه وبين «دومني» نظرات حائرة. وقد لاحظت «دومني» هذه النظرات، وإن تظاهرت بغير ذلك. كانت بمرور الأيام تحاول أن تبدو عادية التصرفات قدر الإمكان، وكانت الأربطة حول رأس «بول» تقل يومًا عن يوم، وعن قريب كانت الضمادات ستُرفع عن عينيه، وعن قريب كانت ستعرف إذا ما كان سيرى قليلا، أم لن يرى على الإطلاق. وكانت «دومني» قد ارتدت ثيابها استعدادًا للذهاب إلى المستشفى عصر يوم الجمعة، عندما اكتشفت عدم وجود «كارا» في أي مكان بالبيت، ولم تستطع العمة «صوفيولا» أن تعرف مكانها، لكنها أضافت أن «دومني» ليست مضطرة إلى انتظارها،

لأنها تضيع دقائق ثمينة من ساعة الزيارة المحددة. وقالت «دومني» وقد تقلصت أصابعها فوق الحقيبة التي تحمل فيها الفاكهة لـ «بول»:

– ألا تأتين معي يا عمتي «صوفيولا»؟ وربتت العمة ذراعها وقالت:

– يا طفلتي العزيزة، هذه فرصة ذهبية لك لتنفردي بـ «بول». وما كان يجب أن تأخذي «كارا» معك كل مرة، أنا على ثقة بأنها تحتكر كل الحديث، يا لها من فتاة ثرثارة! إنها أحيانًا توجع رأسي العجوز.

– ولكن «بول» يستمتع بالصحبة، من فضلك تعالي. وحينئذ نظرت إليها العمة «صوفيولا» بدهاء وقالت لها بصراحة:

– هل أنت خائفة من الانفراد بـ «بول»؟ هل تخشين أن يلومك، إذا اكتشف بعد رفع الضمادات أنه أعمى؟ وأجابت «دومني» برنّة ألم:

– عمتي «صوفيولا»... إنك قاسية القلب... قالت العجوز بجفاء:

– إن هذا يجري في دماء الأسرة. وظلت واقفة أمام الباب حتى ركبت «دومني» السيارة القديمة ولوحت لها والسائق ينطلق بها. وعرف «بول» في الحال أنها جاءت بمفردها، وكانت تتكلم بعصبية طول الوقت وهي تخرج ثمار العنب والخوخ من الحقيبة، وترتبها في طبق على المنضدة الملاصقة لسريره. وكانت أوراق الورد التي أحضرتها في اليوم السابق تناثرت على الأرض، فانحنت تلتقطها، وتجمعها في يدها مختلسة نظرة نحوه، لترى أنه كان غير مرتاح في جلسته والوسائد خلف ظهره، وبدا عابسًا تحت أنفه الشامخ المتعجرف. وقالت «دومني»:

– أعرف أنك تحب أن ترى «كارا»، لكن... وهنا قطعت كلامها، لكن بعد فوات أوان التنبه إلى ألفاظها وتلعثمت ثم استطردت تقول:

– هل... هل تحب أن تأكل خوخًا؟ سأقشر لك واحدة. وبهدوء قال:

– «دومني»، يوجد شيء أريده. ووقفت في لهفة بجانب سريره متسائلة:

– ما هو يا «بول»؟ أخبرني من فضلك. وأدار رأسه وبدا كما لو كان ينظر إليها مباشرة من خلال الضمادات وقال:

– أريد أن تشتري تذكرة طائرة، وأن تعودي إلى «إنجلترا» وحدقت إليه غير مصدقة، وهتفت:

– ماذا؟ ووضع يديه وراء رأسه وقال:

– لقد سمعتني. ولم ترفع بصرها عنه، كانت الشمس تلقي أشعتها من خلال النافذة على سريره، في خطوط أشبه بجلد النمر، وشعاع ذهبي منها استقر على عنقه الأسمر، حيث كانت سترة البيجامة مفتوحة... ولمحت «دومني» حركة حنجرته وهو يبتلع ريقه وانفجرت قائلة:

– إذا كنت تعتقد أنني سأشتري هذه التذكرة، فأنت مخطئ للغاية، سأبقى هنا. قال بجفاء:

– سيخرجونك من هنا بعد خمسين دقيقة. ومالت فوقه، واستندت بيدها إلى السرير، وقالت:

– كان من الضروري أن أوقّع الأوراق.

– تقصدين... أنهم أرغموك؟

– كلا... فعلتها بنفسي من أجلك يا حبيبي.

– ماذا دعوتني؟ ومن جديد أحست كأنه يتأملها من خلال الضمادات، وبدا فمه مترددًا، مسترخيًا بعد توتر اللحظة التي مرت. واندفعت «دومني» كالعاصفة تقول:

– دعوتك من قبل الطاغية اليوناني! والآن تقول لي أن أذهب إلى

«إنجلترا»؟ هل تعتقد أنني أذهب وأنت في هذه الحالة؟ من حقي معرفة ما إذا كانت عينك اليسرى سليمة كما هو حقك!

– منذ متى؟

– منذ أن دخلت حياتي، وجعلتني زوجتك. وبحث بيده... فوضعت يدها فيها، وأغلق أصابعه بإحكام على أصابعها، وسأل:

– هل أنت آسفة عليَّ؟

– آسفة عليك؟ إنني آسفة على نفسي، لأن عليّ أن أحتملك لمدة الخمسين عامًا المقبلة، أيها الطاغية، يا لها من حياة!!

–أنا لا أسألك أن تبقي.

– أنت لم تسألني أن أحبك، أخبرتني بأن أحتفظ بالحب، سوف أحتفظ به لنفسي إذا كان لا يزال ذلك ما تريد يا «بول»، ولكنك لفترة سوف تحتاج إليَّ... وأنا في خدمتك! ثم أطلقت شهقة عالية عندما عادت أصابعه تسحق أصابعها من جديد، ورفع يدها إلى فمه وقال:

– يا لأنوثتك وأنت تهددين وتبكين في الوقت نفسه!

– أنا... أنا لا...

– لست أنثى؟

– لا... لا أبكي...وسقطت فوق السرير، ودفنت وجهها في كتفه، وتركت العنان أخيرًا لدموعها المختزنة، وأسند رأسه على صدرها، وداعبت شعره بأصابعها وهي تقول:

– الدكتور «سويزا» متفائل جدًا... كلنا متفائلون... وأنت؟

– هل أستحق أن أكون؟ لقد انتزعتك من كل ما كان عزيزًا عليك، وخدعتك تلك الليلة الأولى، وحطمت قلبك بفقد الطفل. وعانقته وقالت

بنعومة:

– لا تتكلم بعبارات كهذه يا «بول» فإني أحبك، جعلتني أحبك منذ فترة طويلة، ولكن الكبرياء كانت دائمًا رذيلتي، ولم أستطع أن أعترف بهذا الحب لنفسي فكيف كنت أستطيع أن أعترف به لك؟ أوه يا«بول» عندما أخبروني بأنك تموت، أردت أن أموت معك، وحينما قال الدكتور «سويزا» إن هناك فرصة ولو فرصة صعبة المنال... كان لابد لي من أن أدعك تنالها يا حبيبي. وتحسست رقبته ، وكتفيه، وشعرت بعظامها تتفتت عندما احتواها بين ذراعيه بطريقته القديمة، وانطلق يهمس بصوت متهدج:

– ضقت ذرعًا بهذه المستشفى، يجب أن ينزعوا هذه الأربطة سريعًا، أريد يا «دومني» أن أعود معك إلى البيت. وضمّها أكثر وقال هامسًا:

– الشمس والقمر والنجوم مظلمة الآن يا «دومني»، ماذا لو ظلت هكذا بالنسبة إليّ؟

– هناك شخصان يستطيعان الرؤية عبر الجبال والمحيطات يا «بول»، أنا وأنت إذا كانا معًا، وكل منا يحتاج إلى الآخر.

– تبدو الآن يا حبيبي أنعم ملمسًا، كنت تبدو مكتئبا بعد العملية.

– هل أرهبتك؟

– وهل مضى وقتٌ لم ترهبني فيه؟!

وعادا إلى البيت بعد أيام قليلة، حيث وقف «بول» في الشرفة، وقد لفّ ذراعًا حول خصر «دومني»، ورأى من جديد زرقة البحر الأيوني العميقة منعكسة في عينيها اللتين رفعتهما نحو وجهه في حب. ولم يكن ملحوظًا أن «بول» فقد بصر عينه اليمنى كليّة، ولكن الرؤية في العين

اليسرى كانت تشتد يومًا بعد يوم. وشردت أفكار «دومني»، العينان اللتان تشبهان عيني النمر... وازدادت التصاقًا بـ «بول»... أحست أنها تحبه كثيرًا... العزيز المسيطر، الذي واجه رصاص البنادق والقنابل وهو في السادسة عشرة، والذي سيرث منه أبناؤه الشجاعة والجرأة. وقال «بول»:

– سنعيش حياة طيبة معًا يا «دومني»، الآن سيكون حالنا كذلك اليوم الذي كنا فيه معًا في «كورنوال»، هل تذكرين الثقالة النحاسية؟ وأومأت في سعادة وقالت:

– كانت في حقيبة يدي كل يوم ذهبت فيه لزيارتك في المستشفى، هذا الحيوان الخرافي جلب لنا الحظ، والسعادة يا «بول». وأضاف وهو يضمها أكثر، وبلا نهاية:

– وأنت جلبت لي الحب.

ولم يتركها حتى أقبل «يانيس» مبتسمًا ليخبرهما بأن الشاي في انتظارهما.

تمت بعون الله